سوق الكُتبيين بالقاهرة
في عصر سلاطين المماليك (*)

(٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م)

دكتور: يسري أحمد زيدان

الأستاذ المساعد بقسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية دار العلوم - جامعة القاهرة

تمهيد:

عرفت القاهرة وبعض مدن مصر(١)، ومدن العالم الإسلامي(٢) ظاهرة تخصيص سوق لبيع الكتب، عُرف بسوق الكتبيين، وبسوق الكتب(٣). وحظيت سوق القاهرة للكتب بشهرة واسعة في عصر سلاطين المماليك، واكبت ازدهار الحركة العلمية بمصر خاصة في تلك الفترة التاريخية، إذ إن مصر أضحت مركزًا علميًا مرموقًا، يقصده

(*) للدكتور يسري أحمد زيدان، الأستاذ المساعد بقسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة.

(١) منها مدينة الإسكندرية التي راجت بها تجارة الكتب في العهد الفاطمي والأيوبي، ووقف على ذلك الحافظ السلفي. راجع معجم السفر ص ٢٥ وص٣٠ و١٢٢ و ١٦٨ و ١٧٧ و٢٧٨.

(٢) عن تجارة الكتب بمكة المكرمة فترة البحث راجع الفاسي: العقد الثمين جـ٢ ص ١٣ و٢٩١ - ٢٩٢ والسخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص ٤٠٥ والضوء اللامع جـ١٠ ص ١٢٠، وابن فهد: الدر الكمين جـ١ ص ٤٢٢ و ٥٥٣. وعنها بدمشق راجع: ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان جـ٢ ص ٣٣٠، والنويري: نهاية الأرب جـ٣١ ص ٨٩، وابن شاكر الكتبي: عيون التواريخ جـ٢٠ ص٣٤١ وجـ٢١ ص ٣٠٥ - ٣٠٦، والصفدي: الوافي جـ٣، ص٤١٦ وجـ٤ ص ٨٩ و ٩٤ و٢٢٢ و٤٦١، وابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ٢ حوادث سنة ٧٧٤هـ. وعنها ببغداد راجع: الصفدي: السابق جـ٢ ص ١١٩ وجـ١٦ ص٢٩٦ والسيوطي: بغية الوعاة جـ٢ ص ٣٤٣، وعنها بالأندلس راجع السيوطي: السابق جـ١ ص٢٣٣.

(٣) وردت هذه السوق بهذين الاسمين مترادفين، فالمقريزي على سبيل المثال سماها سوق الكتبيين (السلوك جـ١ قسم ٣ ص٧٠٩، والخطط جـ١ ص٣٧٣ وجـ٢ ص٩٥ و ٩٦ و ١٠١) وسماها أيضًا سوق الكتب (المقفى جـ٧ ص ٤٠ والسلوك جـ٤ قسم ٢ ص ٨٠٣ و ٨٨٥) والسخاوي سماها سوق الكتبيين في (التبر المسبوك جـ١ ص١٩٤ و ١٩٦) وسماه بسوق الكتب في (التبر جـ٢ ص٤٧ والضوء جـ٥ ص٣٠١ وجـ٧ ص ٣ وجـ ١٠ ص٣٣٠) وراجع هذه التسمية أيضًا البقاعي: عنوان الزمان جـ١ ص ٩٧ وعنوان العنوان ص ٣٤٣، والصيرفي نزهة النفوس: جـ٣ ص ١٥٩ و٢٥٣ وراجع: ابن حجر: إنباء الغمر جـ٤ ص ١٢٤.

طلاب العلم من جميع أنحاء العالم الإسلامي، وأصبحت سوق الكتب بها مظهراً من مظاهر هذا النشاط العلمي الفائق، بل شارك سوق الكتبيين في هذا النشاط الحافل، ليس - فقط - من خلال وظيفته الأولى والأساسية المتمثلة في بيع كافة أنواع الكتب، وإنما - أيضًا - بما كان يحدث فيه من التقاء للعلماء، ومن محاورات ومناقشات علمية، حول بعض القضايا الخلافية، أو حول قيمة بعض الكتب علميًا.

وكانت هذه السوق أشهر سوق للكتب في العالم الإسلامي على الإطلاق؛ حيث أمدت راغبي الكتب من الملوك والأمراء والعلماء والكُتَّاب، وغيرهم بما كانوا يحتاجون إليه من كتب في جميع العلوم والمعارف، ليس في مصر وحدها، وإنما في العالم الإسلامي كله؛ نظرًا لما كانت تتمتع به هذه السوق من مكانة طيبة في نفوس راغبي العلم والقراءة؛ ولما كان يزخر به من كتب كثيرة، وفريدة في الوقت نفسه، اجتذبت جمهور القراء من كافة أنحاء العالم الإسلامي.

وبسبب رواج حركة البيع والشراء بسوق الكتبيين بالقاهرة، فإنه استوعب صنوفًا مختلفة من التجار من مصر، ومن غيرها؛ أملاً في المكسب والثراء.

وكان لهذه السوق مواردها من الكتب، وهي موارد كثيرة لبت حاجة السوق من الكتب، وزودتها بها.

وتأتي هذه الدراسة لتظهر نشاط هذه السوق، ودورها في إثراء الحركة العلمية بمصر في عصر سلاطين المماليك، وفي غيرها؛ بما قدّمت من كتبٍ علمية متنوعة، ساهمت في النشاط العلمي بتلك البلاد.

أولاً: سوق الكتبيين بالقاهرة: موقعًا وإنشاءً وتفريقًا بينه وبين سوق الوراقين:

كانت سوق الكتبيين قبل العصر المملوكي، وحتى سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م بمصر بمدينة الفسطاط، تجاه الجانب الشرقي من جامع عمرو بن العاص، في أول زقاق القناديل، بجوار دار عمرو بن العاص رضي الله عنه، ولما انتقلت السوق من هذا المكان سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م استمرت السوق القديمة تؤدي بعض الدور في بيع وشراء الكتب، إضافة إلى سوق الكتبيين الجديدة. وقد أدرك المؤرخ الكبير المقريزي سوق الكتب القديمة بمصر بعد سنة ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م وفيها بقية من

نشاطها في بيع الكتب، ثم وقف على اندثارها، ونهاية مهمتها، وتحولها كلية إلى سوق الكتبيين الجديدة[١] .

وأحدثت السوق الجديدة للكتبيين بالقاهرة بعد سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م فيما بين الصاغة[٢] والمدرسة الصالحية[٣] ، وسكنه الكتبيون[٤] . وكان يحيط بسوق الكتبيين سوق الأمشاطيين[٥] ، وسوق النقليين[٦] «وجميع ذلك جارٍ في أوقاف المارستان المنصوري»[٧] .

وفي سنة ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م وفي شهر رمضان منها ابتدئ بهدم حوانيت الصيارف وسوق الكتب وحوانيت النقليين والأمشاطيين فيما بين الصاغة والمدرسة الصالحية لتجدد عمارتها[٨] ، وسكن الكتبيون بقيسارية خارج باب زويلة، وسكن بعضهم في حوانيت متفرقة بالقاهرة والصليبة[٩] ، إلى أن تمّ بناء قيسارية بباب

---

(١) المقريزي: الخطط جـ٢ ص ١٠١ .

(٢) تقع الصاغة بخط بين القصرين بالقاهرة، تجاه المدرسة الصالحية، وكانت الصاغة وقفًا على المدرسة الصالحية، وقفها الملك السعيد بركة بن الظاهر بيبرس على فقهاء المدرسة الصالحية. راجع: المقريزي: الخطط جـ٢ ص ١٠١ . وعن خط بين القصرين راجع المقريزي: السابق جـ٢ ص ٢٧ .

(٣) بنى هذه المدرسة الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م بين القصرين بالقاهرة، وكان موضعها من جملة القصر الكبير الشرقي الذي بناه جوهر الصقلي سنة ٣٥٨هـ، وأصبح هذا القصر الشرقي الكبير دار خلافة الفاطميين العبيديين، وبه سكن أئمتهم إلى آخر آيامهم، ثم خرب هذا القصر بعد انقراض دولتهم. راجع المقريزي: الخطط جـ٢ ص٣٧٣، وراجع جـ١ ص٣٨٣ .

(٤) المقريزي: الخطط جـ٢ص ١٠١ .

(٥) سوق الأمشاطيين هي السوق المخصصة لبيع الأمشاط. المقريزي: الخطط جـ٢ ص ٩٦ .

(٦) سوق النقليين هي السوق المخصصة لبيع الفستق واللوز والزبيب. المقريزي: الخطط جـ٢ ص ٩٦ .

(٧) المقريزي: الخطط جـ٢ ص ٩٦، ١٠١ . والسلوك جـ٤ قسم ٢ ص ٨٠٣ والصيرفي: نزهة النفوس جـ٣ ص ١٥٩ . ويذكر هنا أن مدرسة المنصور قلاوون وبيمارستانه قد أنشأهما سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م، وأوقف على المدرسة المنصورية الواقعة بداخل البيمارستان المنصوري وعلى البيمارستان أوقافًا عديدة من الحوانيت والقياسر والرباع، وغير ذلك. راجع النويري: نهاية الأرب جـ٣١ ص١٠٥-١٠٨ وحتى ص ١١٠ ، وابن الفرات: تاريخ ابن الفرات جـ٧ ص ٢٧٨، وجـ٨ ص ٩-١٠، وبيبرس الدوادار: التحفة الملوكية ص ١١١ والعيني: عقد الجمان جـ٢ ص ٣٠٨، والمقريزي: الخطط جـ٢ ص ٤٠٥ - ٤٠٦ . وراجع وصف العمرى له: مسالك الأبصار ص ٨٧، وعن أوقافه راجع دراسة د. محمد أمين لها في «تذكرة النبيه» جـ١ ص ٢٩٥ - ٣٩٦ .

(٨) المقريزي: السلوك جـ٤ قسم ١ ص ٨٠٣ وجـ٤ قسم ٢ ص٨٨٥. والصيرفي: نزهة النفوس جـ٣ ص ١٥٩ وص٢٥٣ .

(٩) المقريزي: السلوك جـ٤ قسم ٢ ص ٨٨٥ .

الزهومة[1] للكتبيين في مدة أربع سنوات، وافتتحت سنة ٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م، وتحول إليها الكتبيون «وجاءت من أحسن ما بُني بالقاهرة»[2] .

ولكن الكتبيين عادوا بعد فترة إلى سوقهم الأولى فيما بين الصاغة والمدرسة الصالحية الذي بُني بناءً محكمًا به حوانيت عديدة[3] ، ويعود السبب في ذلك إلى أن القيسارية المستجدة بباب الزهومة كان يعلوها ربع «فيه عدة مساكن، فتضررت الكتب من نداوة أقبية البيوت، وفسد بعضها، فعادوا إلى سوق الكتب الأول حيث هو الآن، وما برح هذا السوق مجمعًا لأهل العلم، يترددون إليه»[4] .

وهكذا كان للكتبيين حوانيتهم التي يضعون فيها كتبهم[5] ، كما كان لسوقهم باب خاص بها[6] .

وتجب الإشارة هنا إلى أن سوق الكتبيين تختلف عن سوق الوراقين، ومن ثم لا يصح الخلط بينهما، وهو الأمر الذي وقع فيه بعض الباحثين[7] عندما لم يفرقوا بين السوقين أو بين عمل كلٍّ من الكتبي والوراق. ومن خلال حديث المؤرخ الكبير المقريزي عن سوق الكتبيين والوراقين يتبين لنا أنهما سوقان لا سوق واحدة؛ فالأولى منهما تقع إلى جانب سوق الأمشاطيين والنقليين يمين الشارع العظيم بالقاهرة، والثانية والأخيرة منهما تقع إلى جانب سوق الحريريين والعنبرانيين يسار الشارع العظيم بالقاهرة[8] .

---

(١) باب الزهومة: أحد أبواب القصر الكبير الشرقي بالقاهرة في الدولة الفاطمية، وسمى بهذا الاسم؛ لأن دخول اللحوم إلى القصر كان من هذا الباب، والزهومة يعني الزفر. راجع المقريزي: الخطط جـ٢ ص ٩٦ .

(٢) المقريزي: السلوك جـ٢ قسم ٤ ص ٨٨٥ والخطط جـ٢ ص ٩٥ و١٠١ والصيرفي: السابق جـ٣ ص٢٥٣ .

(٣) المقريزي: السابق والصفحة نفسها، والصيرفي: السابق والصفحة نفسها.

(٤) المقريزي: الخطط جـ٢ ص ١٠١ . أخطأ المقريزي في عبارته؛ لأنه عَدَّ لفظة (السوق) من قبيل المذكرة، وقد أبقيت عليها؛ لأني نقلت كلامه بنصه.

(٥) راجع ابن حجر: إنباء الغمر جـ٢ ص٣٦١ والسخاوي: الضوء اللامع جـ١ ص ٣١٩ وجـ٩ ص ١٣٠ .

(٦) البقاعي: عنوان العنوان ص ٣٤٣ .

(٧) ذكر أستاذي الكبير الدكتور حسن حبشي (رحمه الله رحمة واسعة) أن هاتين السوقين سوق واحدة. هامش (٣) ص ٢٩٧ من كتاب «إنباء الهصر بأنباء العصر» للصيرفي .

(٨) المقريزي: الخطط جـ١ ص ٣٧٢ - ٣٧٣ وعن سوق الوراقين راجع الخطط جـ٢ ص ٣٩ و ٨٥ و٨٨ و٨٩، والصيرفي: نزهة النفوس جـ٣ ص ١٩٥ وإنباء الهصر ص ٤٦٢ ، وابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص ٣٠٥ و ٥٥٤ . وراجع الصفدي: الوافي جـ١ ص ٢٤٧ و٢٨٧ .

وكانت سوق الوراقين تتضمن حوانيت يجلس فيها الوراقون الذين ينسخون الكتب[١] ، كما كان يتضمن تجاراً لبيع المسك والطيب والماورد والصيني[٢] ، وأمثال ذلك[٣] ، إضافة إلى الشهود الذين يشترون الورق من الوراقين، ويتكسب هؤلاء الشهود من شهاداتهم[٤] .

وكان عمل كلٍّ من الوراق والكتبي معروفًا بمصر قبل عصر المماليك[٥] ، وإن كان بعض الوراقين عمل ببيع الدفاتر والكتب والتصانيف في بعض الأحيان[٦]، واستمر البعض يجمع بين العملين معًا في عصر سلاطين المماليك[٧]. وقد أشار بعض الباحثين المحدثين إلى جمع بعض الوراقين بين مهنة النسخ وبيع الكتب أيضًا[٨] .

ولعل المؤرخ الموسوعي النويري (ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م) هو أبرز من جمع بين الوراقة وبيع الكتب؛ حيث كتب كثيراً من الكتب وباعها بنفسه، ومنها صحيح البخاري الذي كتبه ثماني مرات، وقام بتجليد كل نسخة منه وبيعها بألف درهمٍ، وأحيانًا بسبعمائة درهم، وباع تاريخه الذي كتبه بألفي درهم[٩] .

---

(١) راجع الصفدي: الوافي ص ٣٦٠ وراجع حتى ص ٣٦٢ ، وراجع السخاوي: الضوء اللامع جـ٨ ص ٢٦٨ .

(٢) ذكر أستاذي الكريم الأستاذ الدكتور حسن حبشي (رحمه الله رحمة واسعة) أنه ربما تكون هي القرفة هامش (٣) ص ٢٩٧ «إنباء الهصر» للصيرفي .

(٣) الصيرفي: إنباء الهصر ص ٢٩٧ .

(٤) راجع النويري: نهاية الأرب جـ٣١ ص ٤١٢، وابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص ٥٥٤، والصفدي: الوافي جـ١٢ ص ١٩٥، وابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٥ ص ١١٥ .

(٥) راجع السلفي: معجم السفر ص ١٢٢ و ص ١٦٨ . وقد ترجم ص ١٢٢ لصمصام بن عساكر الوراق بالإسكندرية وذكر أنه كان من أكتب الوراقين للوراقة، وأحسنهم خطًا وأجودهم عبارة.

(٦) راجع الصفدي: الوافي ج١٥ ص ١٦٩ و ١٧٠ .

(٧) راجع الصفدي: الوافي جـ١٠ ص ٣٦٠ - ٣٦٢، وقارن بينه وبين المقريزي: المقفى جـ٥ ص ٦٣- ٦٤ .

(٨) جورج عطية: الكتاب في العالم الإسلامي ص ١١ وراجع د. شعبان خليفة: الكتب والمكتبات في العصور الوسطى ص ١٤٩ - ١٦٦ .

(٩) هكذا عند المقريزي: المقفى جـ١ ص ٥٢١، وعند الصفدي: أعيان العصر جـ١ ص ٢٨١ أنه باعه بألف درهم. وذكر المؤرخان أنه كان يكتب في اليوم ثلاث كراريس. ويذكر هنا أن الصفدي ترجم لأحد العلماء الحفاظ وهو أحمد بن سالم (ت٧٣١هـ/ ١٣٣٠م) وذكر أنه كان يكتب في اليوم خمس كراريس. أعيان العصر جـ١ ص ٣٢٧ . وترجم السخاوي (الضوء اللامع جـ١ ص ١٩٧) للفقيه أحمد بن إبراهيم أبي العباس (ت ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م) وذكر أنه كان ينسخ في اليوم أربعين ورقة متجردًا من أشغال الدنيا. وتجب الإشارة هنا إلى أن الكراسة الواحدة كانت تساوي عشر ورقات.

ومما سبق يتبين لنا أحيانًا اختصاص الكتبيين ببيع الكتب في حوانيتهم بسوق الكتب بالقاهرة بعد شرائها من أصحابها، واختصاص الوراقين بالوراقة؛ شراءً وبيعًا للورق، ونسخًا للكتب وبيعها أحيانًا، وبيعًا للوازم الكتابة من أحبار وأقلام وغير ذلك، فالوراق إذًا قد يكون كتبيًا، والكتبي غير وراقيّ، وإن كان بعض الكتبيين قد جمع بين بيع الكتب، مهنته الأساسية، وبين تجليدها وتذهيبها، وهذا بلاشك متمم لعمله من أجل تقويم بعض الكتب التالفة وغير الصالحة للبيع، وممن جمع بين التجارة في الكتب وتجليدها وتذهيبها محمد بن محمد بن عيسى الكتبي ابن الكتبي والذي تدرب في التجليد على مشاهيره[1] ، إضافة إلى عمله الرئيسي في شراء وبيع الكتب[2] . وممن جمع بين تجارة الكتب وتجليدها أيضًا سالم بن محمد بن محمد القاهري الكتبي (ت ٨٧٦هـ/ ١٤٧١م)[3] ومحمد بن عمر (ت٨٩١هـ/ ٦١٤م) الذي تكسب بصناعة التجليد والتجارة في الكتب[4] . وكما ذكرت فإن تجليد الكتب وتذهيبها عملان مهمان للكتبي، استوجبا تعلمهما من أصحابهما، وقد أشار البقاعي[5] إلى أن أحمد بن حسن السُّرباط قدم إلى القاهرة من بلاد الشام سنة ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م وتعلم صناعة التجليد؛ فصار يعدُ من رؤوسهم في دون ثلاث سنين. مما يبين استقلال هذه المهنة واختصاصها بطائفة معينة لها رؤساؤها، وضرورة تعلم الكتبيين لأصول هذه المهنة؛ استكمالاً لوظيفتهم الرئيسة في التجارة في الكتب.

---

(١) عن صناعة تجليد الكتب في مصر فترة البحث وأعلامها راجع: السخاوي: الضوء اللامع جـ١ ص٣١ وجـ٣ ص٢٤٢ و٣٠٥ وجـ٦ ص١١٥ وجـ٩ ص٦ و١٧٩ و٢٣٠ وجـ١٠ ص٢٨ و١٥٤ و١٦٦ و ١٨٣ وراجع المقريزي: المقفى جـ٥ ص ٤٣٥ ، والبقاعي : عنوان الزمان جـ١ ص ٦٧ .

(٢) السخاوي: الضوء اللامع جـ٩ ص ١٧٩ .

(٣) السخاوي: الضوء اللامع جـ٣ ص٢٤٢ .

(٤) ابن فهد: الدر الكمين جـ١ ص٢٥١ وراجع من ص ٢٥٠ .

(٥) البقاعي: عنوان الزمان جـ١ ص٦٧ .

ثانيًا: موارد سوق الكتبيين:

تنوعت موارد سوق الكتبيين ومصادره التي يستقي منها كتبه المختلفة التي يشتريها التجار ثم يبيعونها، ومن أبرز هذه الموارد، وتلك المصادر ما يلي:

١- كتب العلماء المُتَوفين وغيرهم:

كانت الكتب تتوارث عن الآباء والأجداد[١]، كما كان الورثة يبيعونها أحيانًا بسوق الكتب؛ طلبًا لثمنها أو لعدم اشتغال أحدهم بالعلم؛ ولذا فإنه ربما لا يُعلم بوفاة علمٍ من الأعلام، من العلماء أو من غيرهم إلا ببيع كتبه وأوراقه بسوق الكتبيين[٢]. ولدينا خبر عن بيع كتب ناصر الدين بن عبد الظاهر، شافع بن علي (ت٧٣٢هـ/ ١٣٢٩م)، وكان كما ذكر شهاب الدين البوتيجي الكتبي بالقاهرة للمؤرخ الصفدي[٣] يملك ثماني عشرة خزانة كتب، معظمها كتب أدبية، وقامت زوجته - بعد وفاته - ببيع هذه الكتب كلها، وكانت على علمٍ بثمن كل كتابٍ، ولما باعت هذه الكتب كلها خرجت من القاهرة سنة ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م. كذلك بيعت كتب أحد القضاة بعد وفاته بالقاهرة في بداية القرن التاسع الهجري، وحضر بيعها العلماء والأدباء، ومنهم الأديب شرف الدين السعدي المعروف بعويس (ت٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م)، ونادى منادي الكتب في سوقها على كتب القاضي المتوفي كتابًا كتابًا[٤].

ولذينا خبر آخر عن وفاة أحد الأمراء بالقاهرة، ووصول نبأ وفاته إلى حلب،

---

(١) راجع ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية جـ١ ص٤٩٧.

(٢) راجع ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان جـ٢ ص ٢٩٨ حوادث سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م، وراجع الصفدي: الوافي جـ٨ ص ٣٥٩.

(٣) الصفدي: الوافي جـ١٦ ص٧٧ - ٧٨ وكان الصفدي قد اجتمع مع ناصر الدين بن عبد الظاهر بداره سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م، كما أخبر الكتبي البوتيجي الصفدي بأن ناصر الدين كان بعد أن عمي سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م يعرف كل كتاب بلمسه، ويذكر وقت شرائه، وإذا أراد أي مجلد من خزانة كتبه تناوله كأنه وضعه بيده الآن. وتُلاحظ علاقة الكُتبي شهاب الدين البوتيجي بناصر الدين بن عبدالظاهر، وبالمؤرخ الصفدي معًا.

(٤) راجع ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٨ ص ٣٤٣ - ٣٤٤.

وإلى الأمير أرغـون، سيف الدين الدوادار الناصري[1] (ت٧٣١هـ/ ١٣٣٠م) الذي كان مـولعًا بشـراء الكتب، وبلغ من جمـعها مـا أراد واشتهى؛ فـأرسل ألفي دينار ليُشترى له بها كتب من تركة الأمير المُتَوَفَّى[2] .

إن وفاة أي مهـتم باقتناء الكتب وجمعهـا كان مدعاة لتجمع راغـبي شرائها من العلماء[3] ، وغيرهم، كما كانوا يتجمعون في مناسبات أخرى للغرض نفسه.

٢- الكتب المبيعة في أوقات الأوبئة والأزمات الاقتصادية العامة :

دفع الغلاء الناتج عن الأزمات الاقتصـادية أو عن انتشار الأوبئة والأمراض في بعض الأحيان - الناس إلى بيع ما يمـلكونه من ممتلكات، وكانت الكتب من بينها. ومن سنى الأزمات الاقتـصادية سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م وفيها حـدث غلاء شديد في مصر[4] جعل الطلبة بالمدرسة الفاضلية[5] بها يقومون ببيع معظم كـتبها، وكان بها عدد ضخم من الكتب، قـدّر بمائة ألف مجلد، ضاعت كلهـا بيعًا في هذا الغـلاء، ثم بإعارة الفقهاء لما تبقى من كتبٍ لم تمتد إليها الأيدي بالبيع في هذا الغلاء[6] .

وبسبب الوبـاء الذي وقع بمصر[7] سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م وتعطل أكثـر الأعمال والصنائع صـارت «كتب العلم ينادى عليـها بالأحمـال، فيـباع الحمل منهـا بأبخس الأثمان»[8] .

---

(١) كان سيف الدين الدوادار من مماليك المنـصور قلاوون الذي اشتراه وهو صغـير، وعلمه علوم الدين حتى نبغ فيها، وكانت له عناية كبيرة بالكتب. الصفدي: أعيان العصر جـ١ ص ٤٥٢ - ٤٥٣ .

(٢) الصفدي: السابق جـ١ ص٤٥٢ - ٤٥٣ وذكر أن اسم الأمير المتوفى «قجليس».

(٣) راجع الفاسي: العقـد الثمين جـ٢ ص٢٩٢ - ٢٩٣ . ويذكر هنا أن ابن دقيق العيد المشـهور باقتناء الكتب - كما سيأتي - قد اشترى عددًا كبـيرًا منها من تركة أحد المتوفين . ابن حجر: رفع الإصر ص ٣٤٥ .

(٤) راجع ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان جـ١ ص٢٥٧ .

(٥) بنى هذه المدرسة القاضي الفـاضل عبد الرحيم بن علي البيـساني بجوار داره سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م ووقفها على طائفتي الفقهاء الشافعية والمالكية. المقريزي: الخطط جـ٢ ص ٣٦٥ .

(٦) المقريزي: الخطط جـ٢ ص ٣٦٥ .

(٧) عن وباء الطاعون في هذه السنة بمصر، وعن الألوف من الموتى فـيها راجع المقريزي: السلوك جـ٢ قسم ٣ ص ٧٧٠ - ٧٨٧، والسخاوي: وجيز الكلام جـ١ ص ٣٤ - ٣٥ .

(٨) المقريزي: السلوك جـ٢ قسم ٣ ص ٧٨٦ .

وفي طاعون سنة ٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م[١] بيعت كتب بعض المحدثين[٢] ، وحضر البيع العالم عمر بن علي بن أحمد، وكان مجاعة للكتب، عنده منها ما لا يُعد ولا يُحصى، واشترى في هذه المرة «مسند الإمام أحمد» بثلاثين درهمًا، وغير ذلك من الكتب[٣] .

٣- الكتب المبيعة بسبب الأزمات الاقتصادية الخاصة :

اضطر مقتنو الكتب، وبخاصة العلماء منهم إلى بيعها في وقت الشدة والعسر، للوفاء بديونهم، أو للإنفاق على أنفسهم وأهليهم. يذكر ابن حبيب[٤] أن القاضي محمد بن أحمد بن عثمان (ت٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م) ولد له مولود، ولم يكن عنده شيء، فتوجه إلى سوق الكتبيين لبيع بعض كتبه. وممن باع كتبه لافتقاره الفقيه أبو بكر إسحاق بن خالد (٨٤٧هـ/ ١٤٤٣م) الذي باع كتبه وغيرها لفقره بعد يساره[٥] . ولما وقع الفقيه محمد بن محمد بن عثمان القاهري في ضائقة مالية، ولم يستطع الوفاء بديونه، بيعت كتبه لسداد ديونه[٦] . كذلك كان الفقيه القاضي عيسى ابن سليمان بن خلف المصري (ت٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م) الذي ناب في القضاء عن ابن حجر فترة ممن تضعضع حاله بعد غنى، فاحتاج إلى مال «فبيعت كتبه وأمتعته، وأنفق عليه إلى أن مات»[٧] . كذلك لجأ العالم علي بن محمد بن عبد الحق القاهري (ت٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م) إلى بيع كتبه بعد عوزه وضيق يده، وكان عازمًا على وقفها بعد موته[٨] .

---

(١) لم تحدد المصادر تاريخ هذا الطاعون، ولكني حددت تاريخه اعتمادًا على بعض الشواهد الأكيدة؛ لأنه طاعون - كما جاءت المصادر - عام، والطاعون العام ذو الأثر السيئ الكبير بمصر كان سنة ٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م بعد سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م. ولأن المؤرخ الكبير ابن حجر كان شاهدًا عليه، ولأن المؤرخ الكبير السخاوي في كتابه «الضوء» ترجم لمن شهده وحضر بيع الكتب بسببه. راجع المقريزي: السلوك جـ٤ قسم ٢ ص٨٢٥- ٨٣٠ والسخاوي: وجيز الكلام جـ٢ ص ٥٠٧ - ٥٠٩ .

(٢) لم تذكر المصادر أسماءهم .

(٣) راجع السخاوي : الضوء اللامع جـ٦ ص ١٠٠ - ١٠٥، وزين الدين الحلبي: القبس الحاوي جـ٢ ص ١٢ - ١٣ .

(٤) ابن حبيب: تذكرةالنبيه جـ٣ ص ٢٢٠ - ٢٢٤ .

(٥) راجع السخاوي: التبر المسبوك جـ١ ص ١٨١ والصيرفي: نزهة النفوس جـ٤ ص ٢٩٣ .

(٦) راجع زين الدين الحلبي: القبس الحاوي جـ٢ ص ٣٥٤ .

(٧) البقاعي: عنوان العنوان ص ٢٠٧ .

(٨) راجع السخاوي: الضوء اللامع جـ٥ ص٣٠٨ .

وتضمنت مصادرنا التاريخية أمثلة عديدة لفقهاء وقعوا في ضوائق مالية، فقام أبناؤهم من العلماء أيضًا ببيع ما يملكونه من أثاث، وبضائع، وخيول، وكتبٍ؛ للخروج من هذه الضائقة المالية، ولتجاوز هذه المحنة الصعبة[1].

٤- الكتب المعتدى عليها بالنهب أو المصادرة:

تعرضت بعض الكتب الخاصة ببعض العلماء أو ببعض المدارس إلى نهبها أو مصادرة أصحابها، وبيع هذه الكتب. ولدينا خبر عن عمر بن محمد بن فتوح الدمنهوري (ت٧٥٢هـ/ ١٣٥١م) الذي ترك جملة من الكتب «وهلكت بعده»[2]، أي بيعت ولم يعد لها أثر. كما ذكر ابن حجر أن محمد بن عمر بن أبي بكر العالم الفقيه (ت٨٣٩هـ/ ١٤٣٥م) لما أسن، تغير عقله، فتسلط بعض أهله عليه، فمزقوا كتبه تمزيقًا بالغًا؛ لأنهم كانوا يسرقون المجلدات مفرقات من عدة كتب قد أتقنها، فيبيعونها تفاريق، وكذلك الكتب التي لم تجلد يبيعونها كراريس بالرطل، فضاعت كتبه وكراريسه وفوائده[3]. وحدث أن وقع حريق[4] سنة ٦٩١هـ/ ١٢٩١م بخزانة الكتب بالقلعة، فتلف بها من الكتب في الفقه والحديث والتاريخ وعامة العلوم شيء كثير جدًا، كانت من ذخائر الملوك. فانتهبها الغلمان، وبيعت أوراقًا محرقة، وظفر الناس منها بنفائس غريبة ما بين ملاحم وغيرها، وأخذوها بأبخس

---

(١) راجع على سبيل المثال الصيرفي: نزهة النفوس جـ٣ ص١٥٥، وعبد العزيز بن النجم: بلوغ القِري جـ٣ ص ١٥٦٦.

(٢) راجع الفاسي: العقد الثمين جـ٦ ص ٣٥٧.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ٤ ص ٣٥، وابن فهد: معجم الشيوخ ص ٢٥٢. وقد ذكر السخاوي خبرًا مهمًا (الضوء اللامع جـ٤ ص ٣٣٨) عن أحد الكتبيين وهو عبداللطيف بن محمد القاهري (ت٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م) الذي كان يسهر الليالي المتوالية على الشمع ليكمل بعض الأجزاء المخرومة من الكتب، وليكون كتبًا من الكراريس الملفقة.

(٤) يذكر هنا وقوع حريق بخزانة المدرسة العادلية الكبرى بدمشق سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م ولم يبق من كتبها شيء إلا وتخطفه الناس. راجع الكتبي: عيون التواريخ جـ٢٠ ص ٣٥٥. كما يذكر هنا حدوث حريق هائل بسوق الكتبيين بدمشق سنة ٦٨١هـ احترق فيه خمسة عشر ألف مجلد للشيخ شمس الدين الكتبي، إضافة إلى الكراريس والأوراق. راجع النويري: نهاية الأرب جـ٣١ ص ٨٩، والكتبي: السابق جـ٢١ ص ٣٠٥ - ٣٠٦ والمقريزي: المقفى جـ١ ص ١٢٠ والسلوك جـ١ قسم ٣ ص٧٠٩. وانظر حريقًا آخر بسوق الكتبيين بدمشق الكتبي: السابق جـ٢٠ ص ٢٢.

الأثمان[1] . كما سرقت عُشْر كتب المدرسة المحمودية[2] التي احتوت على خزانة كتب لم يعرف مثلها في وقتها في مصر أو بلاد الشام أو غيرهما؛ لعظم ما تضمنته من كتب نفيسة وفريدة، بلغت أربعة آلاف مجلدة، فاختبرت وفهرست، فنقصت العشر، فألزم خازنها عثمان بن أحمد بن عثمان البصري (ت٨٢٨هـ/ ١٤٢٤م) بقيمتها، فقومت بأربعمائة دينار، فباع فيها داره ومتاعه للوفاء بثمن هذه الكتب[3] .

إن الكتب النفيسة كانت مطلب اللصوص لثمنها الكبير، وقد ذكر البقاعي خبرًا طويلاً عن سرقة كتب نفيسة من القاضي الفقيه جلال الدين بن عبد الرحمن البلقيني (ت٨٦١هـ/ ١٤٥٦م) وتتبعه للسارق في الفسطاط والفيوم ودمياط ومنوف والصعيد، حيث وجده بجزيرة ابن عمر بالصعيد وأخذ كتبه المختلسة كاملة بعد رحلة عناء وتعب طويلتين[4] .

أما عن الأخبار المتصلة بمصادرة الكتب[5] ؛ فمنها ما تعرضت له كتب قاضي

---

(١) راجع النويري: نهاية الأرب جـ٣١ ص ٢٢٥ وابن الفرات: تاريخ ابن الفرات جـ٨ ص ١٣٥ . والمقريزي: الخطط جـ٢ ص ٢١١ . وهناك خبر عن احتراق كتب أحد علماء ومحدثي مصر، راجعه لدى السخاوي: التبر المسبوك جـ١ ص ١٨٥ .

(٢) هذه المدرسة خارج باب زويلة، أنشأها الأمير جمال الدين محمود بن علي الأستادار سنة ٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م وعمل بها خزانة كتب اشتريت من تركة القاضي برهان الدين بن جماعة، وأوقفت بها وشرط ألا يخرج منها شيء من المدرسة، حتى إلى أكابر الدولة وأركان المملكة .راجع المقريزي: الخطط جـ٢ ص ٣٩٤ وابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص ٢٩٩ وراجع جـ١ ص ٣٥٥، وراجع السخاوي: وجيز الكلام جـ١ ص ٢٨٦ .

(٣) راجع ابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص ٢٩٩ و٣٥٦ والسخاوي: الضوء اللامع جـ٥ ص ١٤٣ . وعن سرقة بعض خزائن الكتب الأخرى راجع السخاوي: الضوء اللامع جـ٣ ص ١٧٩ وراجع السيوطي: بغية الوعاة جـ٢ ص ١٦٩ .

(٤) راجع البقاعي: إظهار العصر لأسرار أهل العصر جـ٢ ص ٣١١-٣١٨ . وراجع خبرًا عن سرقة ألفي مجلدة من كتب أحد العلماء ببغداد وبيعها بدمشق. ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ٢ ص ٦٩٢ .

(٥) وردت إشارات عن هذه المصادر للكتب ببلاد الشام وبيعها بسوق الكتب بدمشق أكثر منها بمصر، وراجع للوقوف على هذه الظاهرة ببلاد الشام الفاسي: العقد الثمين جـ٢ ص ٨٤ - ٨٥ وراجع الذهبي: سير أعلام النبلاء جـ٢٣ ص ٣١٢ - ٣١٨ ، وراجع الصفدي: الوافي جـ٢٢ ص ٦٧ - ٦٩، ولدينا أخبار أخرى عن هذه المصادر بمصر قبل فترة البحث. راجع المقريزي: المقفى جـ١ ص ٤٩٦- ٤٩٨ .

القضاة ناصر الدين محمد (ت٨١٩هـ/ ١٤١٦م) من استيلاء عليها بسبب عدم أمانته في عمله، حيث أمر القاضي ناصر الدين بن البارزي بالحوطة على ممتلكاته ومنها كتبٌ كثيرة نفيسة «ليس لها نظير»[١] .

٥- الكتب المنسوخة المبيعة:

كان نسخ الكتب وبيعها مصدرًا من مصادر دخل النُّساخ[٢] والوراقين، واعتمد سوق الكتبيين - بدون شك- على هذا المصدر والمورد من موارده في الكتب؛ وحفلت مصادرنا التاريخية بأسماء العديدين من النساخ في فترة الدراسة[٣] ، ممن يعتمدون في معيشتهم على نسخ الكتب وبيعها، ومنهم بائع الكتب أحمد بن صدقة (ت٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م) الذي عمل بتجارة الكتب، في سوقها بحانوت، ثم افتقر «فصار ينادى على الكتب وينسخ»[٤] . ومنهم البدر البشتكي، محمد بن إبراهيم (ت٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م) وكان أجد أفراد زمانه في كثرة الكتابة، كان ينسخ في اليوم خمس كراريس «فإذا تعب اضطجع على جنبه، وكتب كما يكتب وهو جالس فكتب ما لا يدخل تحت الحصر، ومن النسخ كانت معيشته»[٥] . وقد ارتبطت أسعار الكتب المنسوخة بأسعار الورق؛ فإذا ما رخص سعر الورق رخص سعر الكتاب، وهو الأمر الذي حدث - على سبيل المثال- سنة ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م حيث «تحسنت أسعار الكتب جدًا» لرخص الورق؛ إذ بيعت الكفة منه بثلاثين درهمًا، والكفة خمس وعشرون فرخة[٦] . كما ارتبطت أسعار الكتب المنسوخة بأمور أخرى مثل: جمال

---

(١) راجع الصيرفي: نزهة النفوس جـ٢ ص ٣٧٣ .

(٢) ذكر الصفدي (الوافي جـ١٢ ص ٥٥) أن أحد النساخ - قبل فترة البحث- كان بارع الكتابة، يشتري كاغدًا بخمسة دراهم فيكتب فيه ديوان المتنبي في ثلاث ليالٍ ويبيعه بمائتي درهم، وأقله بمائة وخمسين درهمًا، وكذلك كتب الأدب المطلوبة.

(٣) راجع على سبيل المثال السخاوي: الضوء اللامع جـ١ ص ١٨ وص ١٩٧ و٢٨٩ و ٣٠٤ و ٣٢٨ و جـ٤ ص ١٦٢ ، وجـ٥ ص ٩٢ وجـ٩ ص٢٠٩ وراجع الصفدي : الوافي جـ٧ ص ٣٤ وجـ٨ ص ٣٥٩ وجـ١٨ ص ٣٢٢ .

(٤) راجع ابن حجر: إنباء الغمر جـ٢ ص ٣٦١ والسخاوي: الضوء اللامع جـ١ ص ٣١٩، والنعيمي: الدارس جـ٢ ص ٣٦١ وراجع خبرًا آخر في الضوء اللامع جـ٣ ص ١٧٩ وص ١٩٠ .

(٥) ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٩ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٦) الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان جـ٢ ص ٤٨١ .

خط الناسخ، وكيفية إخراج الكتاب، وغير ذلك مما سيأتي الحديث عنه عند تناول أسعار الكتب في فترة الدراسة.

تعقيب:

توافرت الكتب في سوق الكتبيين بالقاهرة من عدة مصادر وموارد؛ جعلته يضم كتبًا لا حصر لها- وسيأتي بيان ذلك- ويفي بحاجات ومطالب راغبي الكتب من كافة المستويات، وكانت حركة البيع والشراء في سوق الكتبيين لا تهدأ، ولم يجد العلماء أي حرج في بيع كتبهم عند الأزمات والضوائق[١]، وأستشهد هنا بالإمام اللغوي محمد بن يعقوب الفيروزابادي صاحب «القاموس المحيط» والمتوفى سنة ٨١٧هـ/ ١٤١٤م والذي اشتهر بشغفه ومحبته البالغة لشراء الكتب، حتى قيل: إنه اشترى بخمسين ألف مثقال ذهب كتبًا، وكان لا يسافر إلا وصحبته عدة أحمال من تلك الكتب «وكان إذا أملق باعها» فأذهب كتبه بالبيع[٢].

والعالم الفيروزابادي نموذج لغيره من العلماء - وما أكثرهم - في بيع كتبهم عند الحاجة إلى ثمنها، مما يبين تدفق الكتب على سوقها من هذا المورد، كما أن وفاة عالمٍ من العلماء كان فرصة لسوق الكتبيين كي يزخر بكتبه[٣]، إضافة إلى الموارد الأخرى التي ساهمت في ثراء سوق الكتبيين بالكتب وفي الوفاء بمتطلبات رواد هذه السوق.

ثالثًا: أبرز تجار سوق الكتبيين:

اجتذب سوق الكتبيين بالقاهرة للعمل به تجارًا من الفقهاء[٤] والمحدثين[٥]

---

(١) ذكرت المصادر التاريخية خبرًا عن فقيه قاضٍ (ت٨٤٧هـ) درس في مدارس مصر وانتفع به طلبة العلم، ثم آل أمره إلى أن باع كتبه وخالط اليهود على ما لا يرضي الله. راجع السخاوي: التبر المسبوك جـ١ ص ١٨١ والصيرفي: نزهة النفوس جـ٤ ص ٢٩٣.

(٢) الفاسي: العقد الثمين جـ٢ ص ٤٠٠ والسخاوي: الضوء اللامع جـ١٠ ص ٨١ وراجع من ص ٧٩ - ٨٦. والسيوطي: بغية الوعاة جـ١ ص ٢٧٣.

(٣) راجع السخاوي: الضوء اللامع جـ١ ص ١٣.

(٤) راجع السخاوي: الضوء اللامع جـ٧ ص ٢-٣ وراجع جـ١ ص ٣١٩.

(٥) راجع السخاوي: الضوء اللامع جـ٣ ص ١٤٤ وجـ٩ ص ٢٧٣.

والأدباء[١] ، وغيرهم[٢] من القاهرة[٣] ومن سائر أقاليم مصر[٤] ، بل من خارج مصر، ممن نزلوا مصر لأي سبب من الأسباب وأبرزها الفرار من بلاد الشام إلى مصر إثر غزو تيمورلنك للشام سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م[٥] ومنهم - على سبيل المثال- عبدالرحمن بن يوسف بن أحمد الدمشقي (ت٨١١ / ١٤٠٨م) وقدم القاهرة «بعد الكائنة العظمى، وكان يحب الكتب، وصارت له بها مهارة، وكان يتجر بالكتب، ويعرف أسماءها»[٦] . ولدينا أمثلة عديدة لشوام ومكيين، وغيرهم قدموا القاهرة، وعملوا بها في تجارة الكتب[٧] .

وكان هؤلاء الكتبيون يمثلون «طائفة»، ولذا وردت عبارات «كبير طائفته»[٨] ، و«من هذه الطائفة»[٩]، و«رأس الجماعة»[١٠] إشارة إلى جموع الكتبيين في سوقهم بالقاهرة .

وأبرز هؤلاء الكتبيين:

١- محمد بن إبراهيم بن يحيى بن علي المصري الكتبي المعروف

---

(١) راجع المقريزي: المقفى جـ٥ ص ٦٣ .

(٢) راجع السخاوي: التبر المسبوك جـ١ ص ١٩٦ والضوء اللامع جـ٢ ص ٢٥٤ وجـ٣ ص ١٥٠ . والصيرفي: نزهة النفوس جـ٤ ص ٢٩٢ .

(٣) راجع السخاوي: الضوء اللامع جـ٥ ص ٣٠١ و ٣٠٨ .

(٤) راجع السخاوي: الضوء اللامع جـ٤ ص ١٥٢ وراجع البقاعي: إظهار العصر قسم ٢ ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(٥) راجع تفاصيل اعتداء تيمورلنك على بلاد الشام لدى ابن الشحنة المعاصر للأحداث، والذي تقابل مع تيمورلنك وكلمه بعد غزوه لبلاد الشام. روض المناظر لابن الشحنة ص ٢٩٧ - ٣٠٥ .

(٦) ابن حجر: إنباء الغمر جـ٢ ص ٣٦٩ والسخاوي: الضوء اللامع جـ٤ ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٧) راجع ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان جـ٣ ص ٧١٥، والسخاوي: الضوء اللامع جـ١ ص ٣٢ وجـ٣ ص ٢٤٢ و ٢٥٤ والبقاعي: إظهار العصر جـ١ ص ١٥٦ . وراجع خبرًا ذكره السيوطي (بغية الوعاة جـ١ ص ٢٢٦) عن أحد العلماء التوانسة الذين عملوا بسوق الكتب بالقاهرة.

(٨) راجع السخاوي: الضوء جـ٥ ص٣٠١ .

(٩) راجع السخاوي: التبر المسبوك جـ٢ ص ٤٧ والضوء جـ٣ ص ١٤٤ .

(١٠) راجع السخاوي: التبر المسبوك جـ٢ ص ٤٧ والضوء جـ٣ ص ١٤٤ وجـ٧ ص ٢-٣ .

بالوطواط، وولد بمصر سنة ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م وكان يعرف الكتب، وقيمتها معرفة تامة، وله نثر حسن ومجاميع أدبية، وتوفي سنة ٧١٨هـ/ ١٣١٨م[١].

٢- عبد الكريم بن إبراهيم بن أحمد المصري الكتبي (ت٨١٩هـ/ ١٤١٦م) كان يكثر الجلوس بحانوت من حوانيت سوق الكتبيين، ويطلع ويكتب طوال النهار، وكان من خيار الناس ينفع طلبة العلم نفعًا كبيرًا، حيث يشتري الكتب الكثيرة، وخصوصًا العتيقة. ويبيع لمن رام الشراء من طلبة العلم برأس ماله بعينها، ويشترط أنه متى أراد طالب العلم بيع ذلك الكتاب يدفع الكتبي رأس ماله خاصة «فكان الطالب ينتفع بذلك الكتاب دهرًا، ثم يأتي إلى السوق فينادي عليه، فإن تجاوز الثمن الذي اشتراه به باعه، وإن قصر عنه أحضره إليه فدفع الطالب رأس ماله»[٢].

٣- حسين بن حسن بن يوسف القاهري الكتبي، حفظ القرآن، وبرع في الفقه وغيره، ودرس وأفاد، وجلس بسوق الكتب، فكان رأس الجماعة يقول عنه السخاوي: «وهو أحسن من رأيته من هذه الطائفة، وقد انتفع به الطلبة في ذلك، ونعم الرجل، كان متواضعًا، وعابدًا، رقيقًا، باشًا»[٣]. توفي سنة ٨٥١هـ/ ١٤٤٧م.

٤- عبد اللطيف بن محمد بن محمد القاهري، الكتبي المعروف بالسكري، وكان من أكثر الكتبيين كتبًا، وفيها كثير من الكراريس الملفقة والأجزاء المخرومة التي كان يأخذها من الترك، ثم يسهر الليالي المتوالية على الشمع ونحوه ليكمل بعضها من بعض، وتوفي بعد سنة ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م[٤].

٥- عبد الرحمن بن محمد بن محمد السنديسي القاهري (ت٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م) عالم. شارك في بعض العلوم، خبير بالكتب، كثير التردد لسوقها، واتجر فيها[٥].

---

(١) المقريزي: المقفى جـ٥ ص ٦٣ - ٦٤ وراجع ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٩ ص ٢٢١. ويذكر هنا أن ابن الجزري ترجم في «تاريخ حوادث الزمان» جـ٣ ص ٦٣١ للمجد إسماعيل الكتبي ذاكرًا أنه كان قديم الهجرة بسوق الكتب.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع جـ٤ ص ٣٠٥ - ٣٠٦ وراجع ابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص ١٠٩.

(٣) السخاوي: التبر المسبوك جـ٢ ص ٤٧ والضوء اللامع جـ٣ ص ١٤٤.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع جـ٤ ص ٣٣٨. وعرف هذا العمل بدمشق أيضًا راجع ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان جـ١ ص ١٣٧ - ١٣٨.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع جـ٢ ص ١٣٧ - ١٣٨، والتبر المسبوك جـ٢ ص ١٣٧ - ١٣٨.

٦- العز التكروري[١] ، محمد بن أحمد بن عثمان بن عبد الله العز التكروري الأصل، القاهري، المالكي، الكتبي (ت٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م) وكان يعرف قديمًا بالغاني[٢] ، وولد بمصر سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م، وحفظ القرآن، وأخذ الفقه والنحو والعروض، وكان يجلس بسوق الكتب عند العلاء القلقشندي- أحد الكتبيين- وتقدم في صناعة الكتب، وصار في سوقه عين الجماعة، وراج أمره بسببها، كل ذلك مع الديانة، والأمانة، والتواضع، والعقل[٣] .

٧- محمد بن محمد بن علي المصري الحنفي إمام مدرسة صرغتمش[٤] والتاجر في الكتب (ت٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م) خلف من الكتب زيادة على أربعة آلاف مجلد، ووجد له كذب كثير «قل أن وُجد كتاب غريب إلا نسبه بخطه إلى إمام جليل، وأنه في فن جليل، فتسفر العاقبة على أنه كذب، وربما كتب أنه بخط مصنفه»[٥] .

٨- علي بن محمد بن خالد، نور الدين البغدادي (ت٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م) الكتبي، تكسب بالتجارة في سوق الكتب «وارتقى حتى صار بعد العز التكروري كبير طائفته»[٦] .

٩- حسين بن علي بن سالم القاهري الكتبي (ت٨٩٢هـ/ ١٤٨٦م) تكسب

---

(١) التكروري نسبة إلى بلاد التكرور التي تقع أقصى جنوب المغرب، جنوب الصحراء الكبرى على الساحل الغربي لأفريقيا وسكانها من الزنوج، وهي الآن: بلاد السنغال ومالي وغينيا. وعن هذه البلاد وصلتها بدولة المماليك فترة البحث راجع السخاوي: الضوء اللامع جـ٣ ص ١٧٣ و٣١٥ وجـ٥ ص ١٢٦ وجـ٦ ص ١٠٠ - ١٠٥ ، وجـ٩ ص ٢٦٥ وجـ١٠ ص ١٢٠ ووجيز الكلام جـ٢ ص ٥٢٨ و٦٠٨ وجـ٣ ص ١٠١٣ وص ١١٠٧ والفاسي: العقد الثمين جـ٦ ص ١٣٢ و ٢٣٧ وجـ٨ ص ٢٠ . وابن فهد : إتحاف الورى جـ٣ ص ١٧٨ و١٧٩ و ٢٥٦ و ٢٧٤ و ٢٩٦ - ٢٩٧ و ٣٠٨ و ٣٤٢ و ٣٧١ .

(٢) عرفها السخاوي في متن كتابه «الضوء اللامع» جـ٧ ص ٢ - ٣ بأنها نسبة إلى غانة، مدينة بالتكرور .

(٣) السخاوي: الضوء اللامع جـ٧ ص ٢ - ٣ وراجع وجيز الكلام جـ٢ ص ٦٨٠ .

(٤) الأمير صَرْغَتْمُش هو أحد كبار الأمراء في دولة الناصر حسن (٧٤٧-٧٥٢هـ / ١٣٤٧-١٣٥٤م) . وله أعمال طيبة في مكة المكرمة وفي مصر. راجع ابن فهد: إتحاف الورى جـ٣ ص ٢٧٤، وراجع السخاوي: وجيز الكلام جـ١ ص ٨٧ .

(٥) البقاعي: عنوان العنوان ص ٣٢٢ .

(٦) السخاوي: الضوء اللامع جـ٥ ص ٣٠١ .

بسوق الكتب، وكان يسمح بالعارية، وذكر السخاوي أنه قيل له: إنه يعتقد فكر ابن عربي، ولذا كان يتردد عليه في حانوته بسوق الكتبيين بالقاهرة بعض معتقدي هذا الفكر، وقد بيعت كتب هذا الكتبي بالعدد لكثرتها، وذلك بعد انقطاعه عن سوق الكتبيين[1].

١٠- محمد بن محمد بن محمد السنباطي القاهري، الشافعي، قدوة المحدثين (ت٨٩١هـ/ ١٤٨٦م) اجتمع عنده من الكتب والأجزاء ما يفوق الوصف، وصار مرجعًا في الكتب وتحصيلها لمن يروم ذلك، وانفرد بمعرفتها، واتصل به الكثيرون للحصول على الكتب شراءً[2].

وبعد.. فهؤلاء بعض تجار الكتب بسوق الكتبيين بالقاهرة، وهناك غيرهم كثيرون[3] كانوا على معرفة بالكتب وأثمانها، ويتكسبون منها في سوق الكتب بالقاهرة الذي شهد إقبالاً شديداً من العلماء وغيرهم لشراء مختلف الكتب. وقد لاحظت إحدى المستشرقات شغف المسلمين بالكتب، فذكرت أن المسلمين كانوا من عشاق الكتب[4]، كما لاحظ مستشرق آخر نشاط تجارة الكتب في المدن الإسلامية[5]. وهكذا راجت تجارة الكتب في عصر سلاطين المماليك بسوق الكتبيين بصفة خاصة، وكانت تلك السوق مكانًا لالتقاء محبي اقتناء الكتب من كافة التخصصات والوظائف والمهن.

---

(١) راجع السخاوي: الضوء اللامع جـ٣ ص ١٥٠ .

(٢) راجع السخاوي: الضوء اللامع جـ٩ ص ٢٧٢ - ٢٧٤ .

(٣) راجع على سبيل المثال السخاوي: التبر المسبوك جـ١ ص ١٩٤، والضوء اللامع جـ٢ ص ٢٥٤ وجـ٣ ص ٢١٢ و ٢٤٢ و جـ٦ ص ١٦٠ وجـ٩ ص ١٣٠ و١٧٩ وجـ١٠ ص ٣٣٠ و ١٨٢، وراجع ابن حجر: إنباء الغمر جـ٤ ص ١٢٤، والبقاعي: إظهار العصر جـ٢ ص ١٥٦ - ١٥٧ وراجع السيوطي: بغية الوعاة جـ١ ص ٢٢٧ وراجع ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان جـ٣ ص ٦٣١ وراجع الصيرفي: نزهة النفوس جـ٤ ص ٢٩٢، والنعيمي: الدارس جـ٢ ص ٣٦١ .

(٤) آن ماري شميل: التورية بالكتب في الآداب الإسلامية. مقال منشور في «الكتاب في العالم الإسلامي» تحرير جورج عطية. عالم المعرفة العدد ٢٩٧ سنة ٢٠٠٣م .

(٥) د. السكندر ستيبنشفيتش: تاريخ الكتاب جـ١ ص ٢٣٧ عالم المعرفة العدد ١٦٩ .

رابعًا: الكتبيون بين الأمانة والتدليس:

تبين لنا من خلال عرض بعض أسماء الكتبيين بسوقهم بالقاهرة أن أكثرهم كان من الأمناء، العلماء، الذين استثمروا وجودهم في دكاكينهم[1] بسوق الكتبيين في القراءة والاطلاع، والكتابة أيضًا في بعض الوقت، وأن معظمهم كانوا - كما سيأتي- نافعين لطلبة العلم، ميسرين عليهم. إلا أن نفرًا قليلاً منهم بدافع من الطمع والحرص على جمع المال، قام بالكذب، والتدليس على راغبي شراء الكتب ومقتنيها، ومنهم التاجر محمد بن محمد بن علي المصري الحنفي (ت٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م) الذي اشتهر بالكذب والتلفيق، وشهد على كذبه وتدليسه المؤرخ البقاعي[2] الذي ذكر أن هذا التاجر أتى له بكتاب ناقص من أوله وآخره، وقد كتب هو عليه أنه كتاب «مناسبات القرآن العظيم» لابن حزم، فلما نظر فيه البقاعي تبين له أنه كتاب للقاضي أبي بكر الباقلاني في الكلام على مشكل بعض آيات القرآن الكريم، فلا هو لابن حزم، ولا هو في المناسبات. وذكر البقاعي أن هذا التاجر مشهور بهذا الغش؛ حيث إنه إذا وجد كتابًا غريبًا قام بنسبته بخطه إلى أحد الأئمة المشهورين، وإذا وجد كتابًا مخرومًا أتى إلى موضع الخرم منه فيعقبه بأن يكتب في الورقة التي بعدها النص كلمة من الورقة التي يتفق أن تكون بعدها، ثم يجلد ذلك الكتاب؛ فيخفي ولا يظهر إلا عند المطالعة، وأن له من المخازي في الكتب في هذا النوع ما يفوق الوصف. كما أنه كان إذا نسب كتاب إلى أحد أئمة العلم وهو ليس له، ربما قام هذا التاجر بذكر أن هذه النسخة بخط مصنفها.

وواضح أن مثل هذه الألاعيب كانت مكشوفة من العلماء وأمثالهم من القراء، وأن هذه الحيل لم تكن لتنطلي على جموع العلماء والقراء.

وممن كانوا مُعَسِّرين على طلبة العلم، سيئي التعامل مع الباعة والمشترين للكتب بسوقها: التاجر محب الدين عبد اللطيف البنهاوي الشافعي (ت٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م)

---

(١) وردت لقطة دكان بسوق الكتبيين لدى البقاعي: إظهار العصر جـ٢ ص ١٥٦ - ١٥٧ خاصة بالتاجر عبد اللطيف البنهاوي (ت ٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م).

(٢) البقاعي: عنوان العنوان ص ٣٢٢.

الذي كان في بدايته تاجرًا في السُّكر، ثم اتجه للتجارة في الكتب، وفتح له دكانًا في سوقها فذاع أمره، واشتهر ذكره، وعُرف بين الكتبيين في مدة قصيرة، إلا أنه كان بخلافهم يعسر على المشترين، وربما كان تعسيره على الطلبة أشد، وسنّ في سوق الكتب سنة قبيحة ما سبق إليها، هي أنه ما زاد على العَقْد وقاربه يقطع، فمثلاً: إذا اشترى كتابًا بمائة وعشرين، أعطى بائعه مائة، فإذا طلب العشرين، قال له: هذه زيادة على العَقْد، فإذا قال: لا أبيع إلا بذلك رُدوا عليّ كتابي، قال له: قد لزم البيع، وليس لك ذلك «وقد أفقر الله هذا البائع بحيث افتقر جدًا، وكان يمكث أيامًا لا يملك درهمًا»[1].

إنّ التجارة في الكتب كانت تتطلب الأمانة الكاملة، والخبرة اللازمة بالكتب ومصنفيها ونساخها وقيمتها، وهو الأمر الذي توافر في جُل الكتبيين إلاّ نادرًا، وقد أجمعت المصادر على وصف جُل الكتبيين بالأمانة والديانة والرقة والبشاشة والتواضع والخبرة بالكتب والمهارة في تقدير ثمنها وقيمتها، وشذ عدد قليل من هؤلاء الكتبيين ربما لطمعهم الشديد، أو لأنهم لم يكونوا من أهل العلم الواسع والفقه الواعي، وهؤلاء كانوا معروفين[2] ومميزين عن أماثل الكتبيين وأفاضلهم.

خامسًا: نماذج وصور من حجم الإقبال على الكتب:

تشير مصادرنا إلى حرص الكتبيين على شراء مختلف الكتب الجديدة منها والقديمة[3]، وإلى أن بعضهم قد اهتم بتغليب بعض الكتب على بعض في البيع والشراء، تبعًا لاهتمامه الشخصي، وليوله العلمية؛ فعلى سبيل المثال كان الكتبي محمد ابن إبراهيم بن يحيى (ت٧١٨هـ/ ١٣١٨م) يهتم بالكتب الأدبية حيث كان شاعرًا أديبًا[4]، بينما اهتم الكتبي برهان الدين إبراهيم القدسي (ت٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م) الذي قدم من القدس إلى القاهرة للتجارة في الكتب (المصنفات التاريخية خاصة)، حيث إنه

---

(١) البقاعي: إظهار العصر جـ٢ ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(٢) لدينا خبر على نقيض الكتبيين المزورين قبل فترة البحث ذكره السيوطي، وفيه أن عبد الله بن أحمد النحوي (ت٥٦٧هـ/ ١١٧١م) كان إذا ذهب إلى سوق الكتب وأراد شراء كتاب غافل الناس وقطع منه ورقة، وقال: إنه مقطوع ليأخذه بثمن بخس. السيوطي: بغية الوعاة جـ٢ ص ٢٩ - ٣٠ .

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص ١٠٩ والسخاوي: الضوء اللامع جـ٤ ص ٣٠٥ .

(٤) راجع المقريزي: المقفى جـ٥ ص ٦٣ - ٦٤ وراجع ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٩ ص ٢٢١ .

كان عالمًا بالتاريخ «عارفًا بأسماء كتبه وأسماء مصنفيه»[1] . كما اهتم الكتبي محمد بن عمر التونسي (ت٨٩١هـ/ ١٤٨٦م) الذي اتجر بالكتب في القاهرة وغيرها، بتصانيف ابن عربي، فسعى في تحصيلها، ومال إلى فكره، وصار من أكبر الدعاة لمقالته «وصار يهادي أهل الهند بتصانيفه ليرتفق بمكافآتهم»[2] . واهتم جموع الكتبيين بكتب الفقه والحديث، وباقي كتب علوم الدين، ومن المؤكد أن مَن اشتهروا بكثرة الكتب من بين الكتبيين كانوا يتاجرون في كافة الكتب الدينية، واللغوية، والتاريخية، والتجريبية، وغير ذلك، ولدينا خبر عن وفاة أحد المهتمين بصنعة الكيمياء، وهو محمد الشمس الحباك (ت٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م) وترك كتبًا علمية «في فنون متفرقة عدتها ألف وستمائة مجلدة»[3] . مما يؤكد الفكرة التي ذهبت إليها.

إن سوق الكتبيين - مع غيره - وقع عليه عبء إمداد خزائن المساجد والجوامع[4] بالكتب، وكذلك خزائن المدارس[5] ، والأربطة[6] ، والخانقاوات[7] ، وغير ذلك[8] ، كما ساهم في تكوين مكتبات الملوك والأمراء والعلماء والتجار، وغيرهم من محبي العلم والقراءة، ممن يترددون على هذه السوق. يقول المقريزي: «وما برح هذا السوق مجمعًا لأهل العلم يترددون إليه، وقد أنشدت قديمًا لبعضهم:

---

(١) البقاعي: إظهار العصر جـ٢ ص ١٥٦ .

(٢) ابن فهد: الدر الكمين جـ١ ص ٢٥١ وراجع من ص ٢٥٠ . وتجدر الإشارة هنا إلى أن الزين تغري برمش التركماني الحنفي (ت٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م) اشتهر بعداوته لفكر ابن عربي وإحراق ما قدر عليه من كتبه. السخاوي: وجيز الكلام جـ٢ ص ٤٦٢ . واشتهر آخرون بالدفاع عن هذا الفكر. راجع السخاوي: السابق جـ٢ ص ٤٩١ و ٥١٦ و ص ٦٩١ و جـ٣ ص ٩٤٤ و ٩٨٨ .

(٣) السخاوي: الضوء اللامع جـ١٠ ص ١١٠ - ١١١ .

(٤) عن خزائن المساجد والجوامع والزوايا في فترة الدراسة راجع النويري: نهاية الأرب جـ ٣٢ ص ٨٧ والأدفوي: الطالع السعيد ص ٤٧٨ والصيرفي: نزهة النفوس جـ٢ ص ٣٨٣، وابن حبيب: تذكرة النبيه جـ٢ ص ١٨ . ويذكر هنا أن بعض العلماء كانوا يضعون كتبهم بالمساجد معزولة عن كتب الوقف. راجع النويري: السابق جـ٣٢ ص ١٩ .

(٥) راجع السخاوي: الضوء اللامع جـ١ ص ٣٣٠ وجـ٢ ص ١٥٤ وجـ٣ ص ١٧٩ و ٢٤٠ وجـ٥ ص ١٤٣ و١٦٢ وجـ٧ ص ١٥٨ وجـ٨ ص ٩٦ و١١٣ و٢١٦ و٢٢٨ و ٢٤٨ و ٢٧٠ و٢٩٢ وجـ٩ ص٨٢ و١٩٠ و ٢٤٦ وجـ١٠ ص ٦٥ و١٦٨ ووجيز الكلام جـ٢ ص ٥٧٣ .

(٦) راجع السخاوي: الضوء اللامع جـ٣ ص ٣١٢ وجـ ٥ ص ٣٠٧ .

(٧) راجع السخاوي: الضوء اللامع جـ٣ ص ٢٤٦ .

(٨) راجع السخاوي: الضوء اللامع جـ٨ ص ٢٩٢، وابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٨ ص ٣٣ ، وراجع النويري: نهاية الأرب جـ٣١ ص ٢٢٥ وابن الفرات: تاريخ ابن الفرات جـ٨ ص ١٣٥ .

مجالسة السوق مذمومة ومنها مجالس قد تحتسب
فلا تقربن غير سوق الجياد وسوق السلاح وسوق الكتب
فهاتيك آلة أهل الوغى وهاتيك آلة أهل الأدب»[1]

وأبرز مقتني الكتب من الملوك: ملوك بني أيوب بحصن كِيفَا[2] وحماة[3]، وملوك بني رسول باليمن[4] الذين نصت مصادرنا التاريخية على حمل الكتب إليهم من كل الجهات[5]، وغيرهم[6]، وأبرزهم: منسي موسى[7] ملك التكرور الذي حج سنة ٧٢٤هـ/ ١٣٢٣م ومر بمصر، واقترض مالاً كثيراً من تجار مصر «واشترى عدة كتب من فقه المالكية»[8].

أما عن أهم الأمراء الذين كانوا مغرمين بجمع الكتب واقتنائها، فمنهم: الأمير بيدر بن عبد الله المنصوري أحد المماليك المنصورية ونائب السلطنة بالديار المصرية في سلطنة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩- ٦٩٣هـ/ ١٢٩٠-١٢٩٣م) وكان

(١) المقريزي: الخطط جـ٢ ص ١٠١ .

(٢) للباحث بحث قيد النشر بالعنوان السابق، ومن المعروف أن الأيوبيين حكموا حصن كِيفَا حتى سنة ٨٦٦هـ/ ١٤٦١م راجع على سبيل المثال: ابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص ٣٣٤ والبقاعي: عنوان الزمان جـ١ ص ١٧٩ والمقريزي: المقفى جـ٢ ص ٣٨٣ والسخاوي: وجيز الكلام جـ٢ ص ٧٤٩ . ومن المعروف أن حصن كيفا بلدة وقلعة عظيمة كانت تُشرف على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر . (ياقوت: معجم البلدان جـ٢ ص ١٦٥) .

(٣) من المعروف أن المماليك سمحوا للأيوبيين بحماة بحكمها والخطبة بها باسمهم دون أن يرد إليهم أوامر من المماليك «منشور من القاهرة» كما يقول ابن الشحنة: روض المناظر ص ٢٧٦ وراجع ص ٢٧٣ و ص ٢٧٨ وراجع الصفدي: أعيان العصر جـ١ ص ٥٠٦ وراجع من ص ٥٠٣ .

(٤) خلف بنو رسول دولة الأيوبيين في اليمن وحضرموت حتى مكة من سنة ٦٢٦هـ حتى سنة ٨٥٨هـ، وعرفت هذه الدولة بهذا الاسم نسبة إلى رسول الخليفة العباسي الناصر والمستنصر: هارون إلى مصر وبلاد الشام، فقيل له: «الرسول» ثم صار اللقب علمًا على أسرته. وأول من استقل بهذه الدولة هو المنصور نور الدين عمر بن رسول (ت ٦٤٥هـ). راجع الصفدي: الوافي جـ٢ ص٤٧٩، وأحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية جـ١ ص ٢٠٦-٢٠٧ .

(٥) راجع ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان جـ١ ص ٨٦ والصفدي: الوافي جـ١٣ ص ٥٠٢ وابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٥ ص ٣٠٨ .

(٦) ذكر ابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص ٤٥٣ أن يعقوب بن إدريس بن عبدالله من بلاد ابن قرمان كان مشهورًا باقتناء الكتب الكثيرة .

(٧) عن سلطنة ملي وملكها منسي موسى راجع د. حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ص ١٨٦ - ١٩١ .

(٨) المقريزي: الذهب المسبوك ص ١١١ وراجع القلقشندي: صبح الأعشى جـ٥ ص ٢٩٦، وراجع عن حجة ملك التكرور منسي موسى . ابن فهد: إتحاف الورى جـ٣ ص ١٧٨ .

بيدرا يتصف برجاحة العقل، وبالدين، والشغف بالكتب حتى إنه «جمع الكتب في أنواع العلوم، واقتنى منها جملة، واستنسخ جملة أيضًا»[1] . ومنهم: الأمير سيف الدين الدوادار نائب السلطنة في أيام حكم الناصر محمد بن قلاوون في ولايته الثانية (٧٠٩-٧٤١هـ/ ١٣٠٩-١٣٤٠م) ، واشتهر هذا الأمير بتحصيل الكتب النفيسة[2]. ومنهم : الأمير سيف الدين شيخو الساقي (ت٧٥٢هـ/ ١٣٥١م)، وكان يشتري الكتب النفيسة من كل فن[3] .

وغير هؤلاء كثيرون[4] كانوا شغوفين بالكتب واقتنائها وجمعها.

أما عن العلماء في كافة العلوم الإسلامية، فلا عجب في أن يقتنوا الكتب النفيسة في فروع العلم الديني كلها؛ فهي مصدر علمهم، وسبب عزهم، ولذا فهم جميعًا كانوا حريصين على اقتناء الكتب[5] ، ولكني سأقتصر على نفرٍ منهم كانت الكتب حياتهم، ومن هؤلاء الفقيه المصري ابن دقيق العيد، محمد بن عليّ (ت٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م) الذي كان من أذكياء زمانه، وكان في فاقة دائمًا بسبب شراء الكتب، حتى إنه كان يستدين كثيرًا للسبب السابق، وكلمه مرة الفقيه الكبير ابن جماعة في كثرة استدانته، فقال ابن دقيق العيد: «وما يوقعني في ذلك إلاّ محبة الكتب»[6] . وبالمثل كان الفقيه أحمد بن علي المصري الحنفي (ت٨٤١هـ/ ١٤٣٧م)

(١) الصفدي: الوافي جـ١٠ ص ٣٦٠ - ٣٦٢ والمقريزي: المقفى جـ٢ ص ٥٦٧ وابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٣ ص ٤٩٤ .

(٢) راجع النويري: نهاية الأرب جـ٣٢ ص ٢٠٠ .

(٣) راجع الصفدي: الوافي جـ١٦ ص ٢١٠ وابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٦ ص ٢٦٢ .

(٤) راجع المصادر الآتية للوقوف على أسماء هؤلاء الأمراء: الصفدي: الوافي جـ٩ ص ٣٥٤ وأعوان العصر جـ١ ص ٤٥٢ - ٤٥٣، والمقريزي: المقفى جـ٢ ص ٢٧٨ وابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٢ ص ٤٧٦ والصيرفي : نزهة النفوس جـ٢ ص ٦٤ .

(٥) راجع على سبيل المثال ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٥ ص ٢٨٥ وجـ٨ ص ٥٩ و١٨١ و٣٠٦ و ٣٠٨ وجـ٩ ص ٢١٦ و٢٢١ حوادث الدهور جـ٢ ص ٣٤٧، والصفدي : الوافي جـ١٢ ص ٢٥٨ والمقريزي: المقفى جـ١ ص ٦١٩، وابن حجر: إنباء الغمر جـ٢ ص ١٨١ والسخاوي: التبر المسبوك، نسخة المكتبة الأزهرية ص ٣٧٤ وص ٣٩٥ و٤٠٧ و٤٠٩ والضوء اللامع جـ١ ص ٢٢٤ وجـ٣ ص١٥٤ وجـ٤ ص ١٥٩ وجـ٦ ص ١٠٩ وجـ١٠ ص ١١٢ و١٥٣ ووجيز الكلام جـ١ ص ٢٨٦، والصيرفي: نزهة النفوس جـ٣ ص ١٠٨، وراجع ابن حبيب تذكرة النبيه جـ٣ ص ٩٦، والعيني: عقد الجمان ص ٣٠٨ بتحقيق د. القرموط، والتميمي: الطبقات السنية جـ١ ص ٣١٠ .

(٦) ابن حجر: رفع الإصر ص ٣٤٥ والمقريزي: المقفى جـ٦ ص ٣٨١ وراجع من ص ٣٦٧ - ٣٨٧ .

الذي نشأ في نعمة زائدة، وكانت له قدرة ظاهرة وأوقاف كثيرة جداً، حتى إن غلته كانت تزيد على عشرة دنانير في كل يوم «ومع ذلك كان لا يزال في دين كثير، يقتني الكتب النفيسة بالخطوط المنسوبة والجلود الفاخرة وغير ذلك»[1] . ولدينا خبر عن كتب أخذ أئمة الحديث ومعلميه بالمدرسة المنصورية بالقاهرة، وهو الإمام المحدث نور الدين أبو الحسن علي بن جابر شيخ الحديث بالمدرسة المنصورية (ت٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م) وقد جمع كتبًا كثيرة عدتها ستة آلاف مجلد غير الأجزاء[2] .

إن كثيرين من العلماء كانوا يقتصدون في ملبسهم ومركبهم من أجل شراء الكتب، ومنهم: عمر بن علي القاهري (ت٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م) الذي عُرف واشتهر باقتصاده في ملبسه ومركبه مع اقتنائه للكتب الكثيرة[3] :

ومنهم : عمر بن علي بن أحمد التكروري المصري (ت٨٧٦هـ/ ١٤٧١م) الذي كان يوفر ماله للكتب حتى بلغت كتبه حداً كبيراً (لا يدخل تحت الحصر) ثم احترقت مع أكثر مسوداته في آخر عمره، ففقد أكثرها، وتغير حاله، فحجبه ولده إلى أن مات، وكان قبل احتراق كتبه مستقيم الذهن[4] .

وكان بعض العلماء القادرين ماليًا يشترون كتبًا يضعونها في البلاد التي يكثر ترددهم عليها، ومن ثم كانوا لا يستصحبون كتبهم في أثناء تنقلهم، اعتماداً على ما لديهم من كتب في البلاد التي يسافرون إليها[5] .

وعلى العكس من ذلك فإن بعض العلماء كانوا لا يشترون الكتب، اعتماداً على كتب الأوقاف، لعدم استطاعتهم شراء الكتب[6] .

---

(١) البقاعي: عنوان الزمان جـ١ ص ١١١ - ١١٢ .

(٢) ابن حبيب: تذكرة النبيه جـ٢ ص ١٥١ .

(٣) راجع السخاوي: الضوء اللامع جـ٦ ص ١٠٩ وزين الدين الحلبي: القبس الحاوي جـ٢ ص ٢٠ .

(٤) السخاوي: الضوء اللامع جـ٦ ص ١٠٥ وراجع من ص ١٠٠ .

(٥) راجع الفاسي: العقد الثمين جـ٢ ص ٨٢ و٨٤ . وراجع الذهبي: سير أعلام النبلاء جـ٢٣ ص ٣١٢ - ٣١٨، والمقريزي: المقفى جـ٦ ص ١٢١ . مثل: المفسر محمد بن أبي الفضل (ت٦٥٥هـ/١٢٥٧م).

(٦) راجع السخاوي: وجيز الكلام جـ١ ص ١٠ . ويذكر هنا أن الإمام ابن تيمية كانت كتبه مستعارة. النويري: نهاية الأرب جـ٣٢ ص ٢٦٧ . وتجدر الإشارة هنا إلى أن كثيراً من العلماء قاموا بوقف كتبهم على طلبة العلم أو على المدارس والمساجد وغير ذلك. راجع ابن الحمصي: حوادث الزمان جـ١ ص ١٩٧ والسخاوي: وجيز الكلام جـ١ ص ٢٨٦، جـ٢ ص ٤٨٧ والتحفة اللطيفة جـ١ ص ٣٤٧، والضوء اللامع جـ٦ ص ٢٩ والسيوطي: بغية الوعاة جـ٢ ص ٢٧٥، وأمثل هنا بالعالم ابن النفيس (ت٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م) الذي أوقف كتبه وداره على البيمارستان المنصوري بالقاهرة. ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٨ ص ٣٢-٣٣ .

ولم يقتصر اقتناء الكتب النفيسة وغيرها على الملوك والأمراء والعلماء فحسب، بل شاركهم الكُتاب[١] والتجار[٢]، وغيرهم[٣] من كافة الطبقات وأصحاب المهن والحرف. وأمثل هنا بالتاجر علي بن نجم الكيلاني أحد أعيان التجار، والذي كان يشتري لابنه محمد بن علي بن نجم الكيلاني (ت٨٢٢هـ/ ١٤١٩م) الكتاب الواحد بمائة دينار أو أزيد، فمهر ابنه في العديد من العلوم في أيام قليلة، بما اشتراه من كتب، وبما جلب لابنه من معلمين[٤].

ومما سبق يتبين لنا أن الوضع الاقتصادي بمصر في عهد سلاطين المماليك ترك أثرًا مباشرًا على حركة البيع والشراء بصورة عامة[٥]، وحركة بيع وشراء الكتب بصورة خاصة، وظهر ذلك من إقبال القادرين على شراء الكتب واقتنائها، واعتماد البعض على كتب الأوقاف لعدم تمكنهم من شراء الكتب. كما أن حرص البعض على شراء الكتب بكثرة كان على حساب حياته العادية. وعلى أية حال فإن حركة الإقبال على اقتناء الكتب كانت على أشدها، لاسيما في أوقات الرخاء الاقتصادي بمصر[٦]، وقد واكب الكتبيون هذه الحركة النشطة بما وفروا من كتب مختلفة ومتنوعة، وبما يسروا من طرق في التعامل بالبيع والشراء.

---

(١) راجع السخاوي: الضوء اللامع جـ١٠ ص ١١٢ والتبر المسبوك طبعة المكتبة الأزهرية ص ٤٠٩. مثل: محمد الشمس القاهري الحنفي الذي اختص بالظاهر ططر وقتًا، ثم بالظاهر جقمق، ومثل: ناصر الدين بن عبد الظاهر. (راجع: الصفدي: الوافي جـ١٦ ص ٧٧-٧٨).

(٢) راجع ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٩ ص ٢٠١. مثل: التاجر محفوظ بن معتوق، والتاجر محمد بن علي بن نجم. (راجع ابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص ١٨٦، وابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٩ ص ٢٠١).

(٣) ذكر المقريزي (المقفى جـ١ ص٥٣٠) أن أحد القصارين أي الذين يعملون في تنظيف الثياب وتبييضها وهو أحمد بن علي المصري (ت٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م) كان معنيًا بمطالعة الأخبار والتواريخ وتحصيل الكتب.

(٤) راجع ابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص ١٨٦، والعيني: عقد الجمان بتحقيق د. القرموطي ص ٣٣٧.

(٥) عن حركة التجارة بمصر زمن المماليك راجع:

Dopp. P. H, L' Égypte Au Commencement Quinzième Siècle, pp. 38 - 39, 50 , 52, 59, 101 , 109 .

(٦) عن مظاهر الرخاء الاقتصادي بمصر زمن المماليك راجع:

Lane poole: History of Egypt in the Middle Ages, p. 248, 250, 252 , 253 .

سادسًا: صور لطريقة بيع الكتب بسوق الكتبيين، ونماذج لأسعارها:

احتوى سوق الكتبيين بالقاهرة على دلالين[١] أو سماسرة[٢]، ومن أبرز هؤلاء الدلالين السماسرة: أبو البقاء صالح بن يونس العسقلاني (ت٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م)، وكان دلالاً في الكتب بسوق الكتبيين بالقاهرة[٣]، وأحمد بن عبدالله بن علي الكناني المصري (ت٨٨١هـ/ ١٤٧٦م) وهو أحد الدلالين بسوق الكتب[٤]، ومحمد بن عمر الأزهري (ت٨٨٦هـ/ ١٤٨١م) ولم تحمد دلالته بسوق الكتب بالقاهرة[٥]. وهؤلاء الدلالون السماسرة كانوا يرتزقون بالسمسرة في الكتب بسرقها[٦]، وساعد هؤلاء السماسرة بالعمل في السوق منادون ينادون على الكتب[٧] وأسعارها؛ لاسيما عند بيع تركة أحد المتوفين من العلماء أو من غيرهم، حيث يعطي الدلال المنادي كتابًا كتابًا، وينادي المنادي على الكتاب، ويحدد سعره، وتحدث مساومات عليه، ويباع لمن عرض مبلغًا أعلى من غيره. ولدينا خبر عن حضور أحد الأدباء وهو عيسى بن حجاج بن شداد المعروف بعويس (ت٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م) لبيع تركة أحد القضاة من الكتب، ورأى الدلال يعطي المنادي «ديوان عويس» الذي جمعه القاضي ويقول للمنادي: قل: ديوان عويس بدرهمين. فغضب عويس؛ لأن ديوانه بيع من قبل بمائة درهم[٨].

---

(١) راجع ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان جـ٣ ص ٧١٥ والسخاوي: الضوء اللامع جـ٨ ص ٢٦٨، والبقاعي: عنوان الزمان جـ١ ص ٩٧.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع جـ١ ص ٣٦٢.

(٣) ابن الجزري: السابق جـ٣ ص ٧١٥.

(٤) البقاعي: السابق جـ١ ص ٩٧ وذكر أنه لم يشتغل بالعلم بل بالدلالة. والسخاوي: السابق جـ١ ص ٣٦٢. ويبدو أن هذا الدلال لم يكن صدوقًا في دلالته وسمسرته.

(٥) السخاوي: السابق جـ٨ ص ٢٦٨.

(٦) تجدر الإشارة هنا إلى وجود دلالين بمدن العالم الإسلامي مخصصين بالدلالة في الكتب وعنهم بمكة على سبيل المثال فترة البحث راجع السخاوي: السابق جـ٣ ص ٢٥٦، والتحفة اللطيفة جـ١ ص ٤٠٥، وابن فهد: إتحاف الورى جـ٤ ص ٣٠٢.

(٧) راجع ابن تغري بردي: المنهل جـ٨ ص ٣٤٤، والسيوطي: بغية الوعاة جـ١ ص ٢٢٧.

(٨) ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٨ ص ٣٤٣ - ٣٤٤. ويذكر هنا أن هذا الأديب المصري «عويسًا» كان قد ولد بالقاهرة سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م.

وكان الكتبيون ملازمين لحوانيتهم[١] أو دكاكينهم[٢] بالسوق[٣] ، ولأن أكثرهم كانوا من العلماء بالدين وعلومه المختلفة[٤] ، فإنهم كانوا يقضون أوقاتهم في الاطلاع والكتابة[٥] ، وأحيانًا في إصلاح الكتب وتجليدها[٦] . كذلك فإن هؤلاء الكتبيين كانوا يشركون أبناءهم في عملهم ويدربونهم عليه؛ بدليل ظهور ظاهرة «الكتبي ابن الكتبي» ومن هؤلاء: الكتبي عبد الكريم بن إبراهيم المصري (ت٨١٩هـ/ ١٤١٦م)، وابنه الكتبي علي بن عبد الكريم (ت٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م)[٧] ومحمد بن محمد بن عيسى القاهري الكتبي ابن الكتبي، وكان متميزًا في الطب والميقات، إضافة إلى عمله الأساسي[٨] . وكان الراغبون في شراء الكتب من طلبة العلم وغيرهم يترددون على هذه الحوانيت ليشتروا الكتب التي يريدونها أو يدلهم السمسار عليها وعلى بائعها، ويستنتج من بعض الأخبار التاريخية أن البيع كان يتم بالنقد الحاضر أو الآجل[٩] .

أما عن أسعار بعض الكتب التي وردت في مصادرنا التاريخية ، فمن المؤكد أنها اختلفت بحسب نوعية الورق، والخط، والتجليد، وقيمة الكتاب نفسه، وشهرة مؤلفه ومكانته العلمية، وغير ذلك من عوامل وأسباب تحكمت في سعر الكتاب، ويستخلص من مصادرنا التاريخية أن الورق البغدادي كان مشهورًا وممتازًا، ولذا كُتب القرآن الكريم عليه سنة ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م بالقاهرة، وحفظت هذه النسخة من

---

(١) راجع ابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص ١٠٩ والسخاوي: الضوء اللامع جـ١ ص ٣١٩ وجـ٤ ص ٣٠٥ .

(٢) راجع البقاعي: إظهار العصر جـ٢ ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(٣) راجع السخاوي: السابق جـ١ ص ٣١٩ وجـ٤ ص ٣٠٥ .

(٤) كان الكتبي التكروري فقيهًا نحويًا، وكان الكتبي السنديسي المصري يدرس في جامع الحاكم وحضر دروسه الإمام السخاوي. راجع التبر المسبوك جـ٢ ص ١٣٨ . وراجع جزئية أبرز الكتبيين بسوق الكتب من البحث.

(٥) راجع ابن حجر: السابق جـ٣ ص ١٠٩، والسخاوي: السابق جـ٤ ص ٣٠٥ .

(٦) راجع السخاوي: الضوء اللامع جـ٤ ص ٣٣٨ وجـ٩ ص ١٧٩ .

(٧) ابن حجر: السابق جـ٤ ص ١٢٤ .

(٨) السخاوي: السابق جـ٩ ص ١٧٩ .

(٩) راجع السخاوي: السابق جـ٦ ص ١٠٠ .

كتاب الله الخالد بالجامع الحاكمي بالقاهرة[1] ، كما أن الأمير سيف الدين شيخو الساقي أحد الأمراء بمصر (ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) كتب بخطه بعض آيات القرآن الكريم على ورق بغدادي كبير[2] . ويبدو أن الورق الشامي الذي كان يكتب عليه أيضًا[3] كان أقل ثمنًا من الورق البغدادي.

كما أنّ كتابة الكتاب بخط مصنفه كان يعلي من قيمة الكتاب علميًا وماليًا، ولذا كان بعض مقتني الكتب يعيد شراء بعض الكتب التي اشتراها إذا وقف على نسخ منها مكتوبة بخط مصنفيها، ومن هؤلاء: إبراهيم بن عبد الرحيم بن محمد بن جماعة (ت٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م) قاضي الديار المصرية ثم الشامية، وترك من الكتب النفيسة ما يعز اجتماع مثله؛ لأنه كان مغرمًا بها، وكان يشتري النسخة من الكتاب التي إليها المنتهى في الحسن، ثم يجد الكتاب نفسه بخط مصنفه فيشتريه، فاقتنى بخطوط المصنفين ما لا يعبر عنه كثرة[4] . ولاشك في أن تجليد الكتب بالجلود الفاخرة كان عاملاً من عوامل ارتفاع أثمان هذه الكتب[5] .

ويختلف سعر الكتب في الأوقات الطبيعية عن سعرها وقت الأزمات بطبيعة الحال، حيث إن الكتب فيها تباع بأرخص الأثمان، وقد مر بيان ذلك[6] ، كما يبدو أن الكتب التي تُباع في السوق بعد وفاة أصحابها كانت أقل بكثير مما كانت تباع به من ذي قبل بدليل بيع مسند الإمام أحمد رضي الله عنه بثلاثين درهمًا ضمن بيع تركة كتب. وبدليل ما مر ذكره من بيع ديوان «عويس» بمائة درهم، وبيعه ضمن بيع تركة قاض متوفي بالسوق بدرهمين اثنين لا غير، وهذا يفسر حرص مقتني الكتب على حضور بيع الكتب المتوفى عنها أصحابها، حتى ولو كانوا خارج مصر كما حدث من الأمير أرغون، سيف الدين الناصري (ت ٧٣١هـ/ ١٣٣٠م) عندما كان بحلب وسمع بوفاة

---

(١) النويري: نهاية الأرب جـ٣٢ ص ٨٧ .

(٢) راجع الصفدي: الوافي جـ١٦ ص ٢١٠ - ٢١١ وابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٦ ص ٢٦٢ .

(٣) راجع الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان جـ٢ ص ٤٨١ .

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص ٣٥٥، وراجع خبرًا آخر لدى البقاعي: عنوان الزمان جـ١ ص ١١٢ والتميمي: الطبقات السنية جـ١ ص ٤٦٦ .

(٥) راجع جزئية موارد سوق الكتبيين من هذا البحث .

(٦) راجع السخاوي: الضوء اللامع جـ٦ ص ١٠٠ - ١٠٥ .

أحد الأمراء وبيع كتبه بالسوق، فأرسل ألفي دينار ليُشْتَرى له بها من هذه الكتب ما يريده[1] .

ولدينا خبر عن كتاب في الفقه الشافعي هو «فتح العزيز على كتاب الوجيز» للإمام أبي القاسم عبد الكريم القزويني الشافعي الرافعي (ت٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م) وفيه شرح لكتاب «الوجيز» للإمام الغزالي، عندما ظهر كتابُ أبي القاسم القزويني قام ابن دقيق العيد (ت٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م) بشرائه بألف درهم وصار يصلي الفرائض فقط لاشتغاله بمطالعة الكتاب، حتى أنهاه قراءة ودراسة[2] .

والخبر السابق يدل على ارتفاع سعر الكتب في بعض الأحيان، ويدل على حرص العلماء الشديد على مطالعة كل جديد من الكتب، وبذل الجهد في الاطلاع، والصبر والجلد على طلب العلم.

ويبدو أن ارتفاع سعر الكتب كان هو السائد في الظروف العادية، وتبقى الظروف الاستثنائية - التي سبق ذكر بعضها - فرصة سانحة لشراء الكتب، ومن هذه الظروف الطارئة بيع أحد الكتبيين لكتبه بسبب مرضه، وهو ما حدث للكتبي حسين ابن علي بن سالم القاهري (ت٨٩٢هـ/ ١٤٨٦م) حيث بيعت كتبه بالعدد لكثرتها[3]. ويستدل على أن أسعار الكتب كانت في الأعم الأغلب مرتفعة من اعتماد بعض العلماء على الكتب الموقوفة في تحصيل العلم ومطالعة مصنفاته .

سابعًا: دور سوق الكتبيين في إفادة طلبة العلم وتقديم الكتب للشوام والمغاربة والتكارزة خاصة:

اشتهر جل الكتبيين بالتيسير على طلبة العلم المترددين على سوق الكتب بالقاهرة، حيث كانوا يبيعون الكتب لهم برأس المال دون زيادة على الثمن الذي اشتراه به الكتبيون، بشرط أن يبيع الطلبة الكتاب مرة أخرى لهؤلاء الكتبيين في حالة عدم ارتفاع ثمنه، وإلا باعه الطلبة لمن شاءوا، وأبرز من اشتهر بهذا العمل

(١) راجع الصفدي: أعيان العصر جـ١ ص ٤٥٢ - ٤٥٣ وراجع الوافي جـ٨ ص ٣٥٩ .
(٢) راجع الأدفوي: الطالع السعيد ص ٥٨٠ وراجع من ص ٥٦٧ - ٥٩٩ وراجع الصفدي: الوافي جـ٤ ص ١٩٣ - ٢٠٩ وراجع ترجمة ابن دقيق فقط لدى ابن العماد: شذرات الذهب جـ٦ ص ٥ - ٦ .
(٣) راجع السخاوي: الضوء اللامع جـ٣ ص ١٥٠ .

الجليل في التعامل مع طلبة العلم هو: الكتبي عبد الكريم بن إبراهيم بن أحمد المصري (ت٨١٩هـ/ ١٤١٦م). الذي نفع طلبة العلم نفعًا كبيرًا[١] ، حتى إن شيخ المحدثين الإمام ابن حجر المؤرخ الكبير يقول عنه: «وما رأيت أحسن منه في الإحسان إلى الطلبة»[٢] . كذلك كان الكتبي حسين بن حسن القاصري (ت٨٥١هـ/ ١٤٤٧م) نافعًا للطلبة الذين استفادوا منه كثيرًا من تعامله معهم، واستحق ثناء المؤرخ الكبير السخاوي بقوله: «وهو أحسن من رأيته من هذه الطائفة»[٣] أي طائفة الكتبيين.

أما عن صلة الكتبيين بالمغاربة والتكاررة والشوام بصورة خاصة، فإن بعض الكتبيين اشتهر بالتجارة مع المغاربة والتكاررة بصورة خاصة، حيث يمرون بمصر في أثناء التوجه لأداء فريضة الحج، وأبرز من اشتهر بذلك هو داود بن سليمان بن حسن القاهري (ت٨٦٣هـ/ ١٤٥٨م)[٤] . وكان المغاربة يشترون كتبًا كثيرة من مصر ويحملونها إلى المغرب قبل فترة الدراسة أيضًا[٥] ، مما يبين دور مصر في إمداد المغرب بالكتب الكثيرة. أما التكاررة؛ فإنهم كانوا يتلقون العلم بمصر ويشترون منها الكتب الكثيرة أيضًا، وهم في طريقهم للحج. ذكر السخاوي[٦] أنه في سنة ٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م قدم وفد حج المغاربة والتكاررة «وفيهما من له عناية بالعلم، بحيث أخذ عني غير واحد من أعيانها». وأورد السخاوي أيضًا أنه في سنة ٨٩٢هـ/ ١٤٨٦م قدم جماعة من التكرور للحج «واشتروا من القاهرة بعض الكتب» وفيهم شخص اسمه عبد العزيز يُنسب لطلب في الجملة «فاجتمع بي مرة بعد مرة وأخذ عني»[٧] . وقد التقى المؤرخ والعالم السخاوي بالفقيه عبد العزيز التكروري مرة أخرى سنة ٨٩٤هـ/ ١٤٨٨م في رحلة الحج أيضًا، وفي هذه المرة اشترى كتبًا كثيرة[٨] .

(١) راجع السخاوي: الضوء اللامع جـ٤ ص ٣٠٥ - ٣٠٦ وابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص ١٠٩ .
(٢) ابن حجر: إنباء الغمر جـ٤ ص ١٢٤ .
(٣) السخاوي: التبر المسبوك جـ٢ ص ٤٧، وراجع الضوء اللامع جـ٣ ص ١٤٤ ، ٢١١ . وهذا البيع برأس المال خاص بطلبة العلم تيسيرًا من تجار الكتب، ورفقًا منهم بطلبة العلم كما مر عند الحديث عن (أبرز الكتبيين)، وكما جاء هنا بالمتن .
(٤) السخاوي: الضوء جـ٣ ص ٢١١ .
(٥) راجع السلفي: معجم السفر ص ١٧٧ .
(٦) السخاوي: وجيز الكلام جـ٣ ص ٩٥١ .
(٧) السخاوي: وجيز الكلام جـ٣ ص ١٠١٣ .
(٨) السخاوي: السابق نفسه جـ٣ ص ١١٠٧ .

وقد سبقت الإشارة إلى حج ملك التكرور موسى سنة ٧٢٤هـ/ ١٣٢٣م ومروره بمصر، واقتراضه مالاً كثيراً من تجارها، اشترى به عدة كتب في فقه المالكية[١].

ولأن التكارة كانوا أثرياء، كرماء[٢]، حريصين على العلم وتلقيه، وتعلمه، فإني أرجح أن يكونوا قد اشتروا كتبًا كثيرة للغاية من مصر وهم في طريقهم لأداء الحج أو عودتهم من تأديته، ويشهد على رأيي ما ذكرته من أخبار تتصل بتلقيهم للعلم وشرائهم للكتب من مصر.

أمّا عن شراء الكتب من مصر من أهل الشام بصورة خاصة، فقد سبقت الإشارة إلى إرسال الأمير أرغون، سيف الدين الناصري (ت٧٣١هـ/ ١٣٣٠م) وهو بحلب ألفي دينار إلى القاهرة لشراء كتب له من تركة أحد المتوفين[٣]. وذكر السخاوي خبرًا آخر يؤكد هذا الأمر، وفيه أن ابن الشحنة الحلبي قدم القاهرة سنة ٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م وقابل السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ/ ١٤٣٨-١٤٥٣م) ثم استمر ابن الشحنة مقيمًا بالقاهرة «واشترى في هذه القدمة كتبًا كثيرة»[٤].

وصفوة القول: إن القاهرة بعلمائها وتجار كتبها قامت بدور كبير في الحركة العلمية في عصر سلاطين المماليك مع التكارة والمغاربة بصورة خاصة، وإن هؤلاء التكارة والمغاربة والشوام وغيرهم قد استثمروا وجودهم بالقاهرة ليقتنوا كثيرًا من الكتب المختلفة في فروع العلم الديني بصفة خاصة، وإن تجار الكتب قد استفادوا من هذا الإقبال على تلقي العلم، من خلال ما باعوه من كتب، عادت عليهم بالمال الكثير، الأمر الذي جعل بعضهم يشتهرون بالتجارة مع هؤلاء على الأخص.

ثامنًا وأخيرًا: جوانب من لقاءات العلماء ومناقشاتهم بسوق الكتبيين:

كان سوق الكتبيين بملاحظة شيخ المؤرخين المصريين المقريزي مجمعًا لأهل

---

(١) راجع المقريزي: الذهب المسبوك ص ١١١ والقلقشندي: صبح الأعشى جـ٥ ص ٢٩٦، وراجع ابن فهد: إتحاف الورى جـ٣ ص ١٧٨.

(٢) راجع الفاسي: العقد الثمين جـ٦ ص ١٣٢. ويبدو أن إقبال التكارة على شراء الكتب من مصر يعود إلى اهتمامهم بالعلم، وغناهم الذي يشجعهم على شراء كتب العلم من مصر. (راجع ابن حجر: الدرر الكامنة جـ٥ ص ١٥٤- ١٥٥). وشهرة سوق الكتب، وازدهار الحركة العلمية بمصر شجعت المغاربة وغيرهم لشراء الكتب منها.

(٣) راجع الصفدي: أعيان العصر جـ١ ص ٤٥٢ - ٤٥٣.

(٤) السخاوي: التبر المسبوك، النسخة الأزهرية ص ٣٨٣.

العلم، يترددون إليه[1] ، وهو الأمر الذي يمكن الوقوف عليه من خلال ما ورد من أخبار وإشارات خاصة بهذا الأمر في مصادرنا التاريخية. إنَّ بداية معرفة الفقيه والنحوي الكبير العز التكروري المصري (ت٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م) بتجارة الكتب بسوقها بالقاهرة، كان عن طريق تردده على الكتبي العالم أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م) حيث كان التكروري يجلس عنده بسوق الكتب، ويأخذ عنه العلم[2] . كما أن معتنقي فكر ابن عربي كان لهم تواجد بالسوق لدى الكتبي حسين بن علي بن سالم (ت٨٩١هـ/ ١٤٨٦م) الذي كان ينتمي إلى فكر ابن عربي[3] . ومن نماذج لقاءات العلماء ومناقشاتهم بسوق الكتبيين بالقاهرة ما ذكره الصفدي[4] وغيره[5] من حضور الإمام العلامة ابن القَوبَع التونسي (ت٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م) لسوق الكتب بالقاهرة، والشيخ بهاء الدين بن النحاس موجود، وأحد المنادين ينادي على ديوان ابن هانئ المغربي، فأخذه ابن القَوبَع ونظر فيه وجعل يترنم بقول ابن هانئ:

فتكاتِ لحظِكِ أم سيوفَ أبيك وكئوسَ خمرك أم مراشفَ فيكِ

وقام بكسر التاء، وفتح الفاء والسين والفاء. فالتفت إليه ابن النحاس وقال: يامولانا، ذا نصب كثير!. فقال له ابن القَوبع بحدته المعروفة منه: أنا لا أعرف الذي تريده، أنت مما رفع هذه الأشياء على أنها أخبار لمبتدآت مقدرة، أي: هذه فتكات لحظك أم كذا أم كذا؟ وأنا الذي أقوله: أغزل وأمدح، وتقديره: أأقاسي فتكات لحظك أم أقاسي سيوفَ أبيك، وأرشفُ كئوس خمرك أم مراشف فيك؟ فخجل ابن النحاس وقال: يا مولانا فلأي شيء ما تتصدر وتشغل الناس؟ فقال: استخفافًا بالنحو واحتقارًا له، وإيش النحو في الدنيا.

---

(١) المقريزي: الخطط جـ٢ ص ١٠١ .

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص ١٧٨ وراجع السخاوي: الضوء اللامع جـ٧ ص ٢-٣ وراجع وجيز الكلام جـ٢ ص ٦٨٠ .

(٣) السخاوي: الضوء اللامع جـ٣ ص ١٥٠ .

(٤) الصفدي: الوافي جـ١ ص ٢٣٩ وراجع من: ص ٢٣٨ - ٢٤٧ .

(٥) راجع المقريزي: المقفى جـ٧ ص ٣٨ والسيوطي: بغية الوعاة جـ١ ص ٢٢٦ - ٢٢٧ ويُذكر هنا أن ابن القوبع تونسي الأصل حيث ولد بتونس سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م ودرس النحو وغيره، وقد توفي بالقاهرة.

وأستأنس - فقط - بخبر آخر في فترة البحث بمكة المكرمة، دليلاً على الفكرة التي ذهبت إليها، وغالبًا ما حدث مثل هذا الخبر بسوق الكتبيين بالقاهرة، وصاحب هذا الخبر هو تقي الدين الفاسي[1] الذي ذكر أن العلماء بمكة المكرمة اجتمعوا عند بيع تركة كتب بها، وعرض كتاب منها للخطيب البغدادي - الذي له رأيه الخاص في الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه - ورفض العلامة ضياء الدين الهندي الحنفي (ت ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م)[2] الزيادة في سعر كتاب الخطيب البغدادي فاعترض العلامة زين الدين العراقي ذاكرًا أن الخطيب البغدادي ساق - فقط - كلام الناس في أبي حنيفة وآراءهم فيه.

إن سوق الكتبيين كانت مكانًا لتلاقي العلماء ولمناقشاتهم اللغوية والفقهية، وهذا يفهم من الأخبار الواردة عن تردد العلماء بمختلف تخصصاتهم على سوق الكتبيين، ومن الحوارات السابقة التي تمت بين العلماء متصلة ببعض القضايا[3].

***

(١) عن دور الهنود في الحياة الثقافية بالحرمين الشريفين زمن سلاطين المماليك، وعن دور أسرة بني الضياء بصفة خاصة راجع بحثًا للباحث عن هذا الدور. نشر بمجلة المؤرخ العربي، العدد ١٢، المجلد الأول مارس ٢٠٠٤م.

(٢) الفاسي: العقد الثمين جـ٢ ص ٢٩٢ - ٢٩٣. ويذكر هنا أن علماء الحنفية قد ألفوا كتبًا للرد على الخطيب البغدادي، ومنها كتاب الملك المعظم عيسى بن العادل (ت ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م): «السهم المصيب في كبد الخطيب». وراجع تعليقات المحقق الأستاذ فؤاد سيد.

(٣) ولم أعثر في مصادرنا التاريخية على أمثلة أخرى لمناقشات العلماء بسوق الكتبيين، حيث إن هذه المصادر ركزت على ذكر أمثلة لمناقشات العلماء ومناظراتهم بدور العلم من المساجد والمدارس وغيرها. وما قدمته نماذج فقط لهذه الظاهرة، ولهذا النشاط الفكري بسوق الكتبيين.

الخاتمة

تخصصت سوق من أسواق القاهرة في عصر سلاطين المماليك في بيع الكتب المختلفة، وكانت هذه السوق واقعة بين الصاغة والمدرسة الصالحية، واحتوت على دكاكين عديدة لبيع مختلف الكتب القديمة والجديدة، حيث تنوعت موارد هذه السوق من الكتب المختلفة، الأمر الذي جعل هذه السوق زاخرة بالكتب الكثيرة، وجعلها تفي بكل متطلبات علماء مصر، وغيرهم، وبخاصة علماء الشام والمغرب والتكارزة، الذين اشتروا العديد من الكتب من سوق الكتبيين بالقاهرة. وساهم الكتبيون في رفع المعاناة عن طلبة العلم بتقديم تسهيلات كبيرة عند بيع الكتب لهم أو عند شرائها منهم؛ فاشتهر العديد من الكتبيين بحسن التعامل مع طلبة العلم، بينما شذ نفر منهم فلم يلتزموا بهذه السياسة الحكيمة.

وقد تحكمت أمور عديدة في أسعار الكتب بسوق الكتبيين بالقاهرة، وكانت أسعار الكتب بها في الظروف العادية مرتفعة بعض الشيء قياسًا إلى أسعار الكتب بها في الأوقات غير العادية، وفي مناسبات بيع تركة كتب المُتَوَفَّيْن؛ حيث تكون الكتب أقل سعرًا جدًا.

إن سوق الكتبيين تُعد مظهرًا من مظاهر ازدهار الحركة العلمية بمصر في عهد سلاطين المماليك، وتعد - في الوقت نفسه - عاملاً مساعدًا من عوامل نشاط هذه الحركة؛ لِمَا قَدّمَت لراغبي مقتني الكتب من العلماء وغيرهم من كتبٍ مختلفة في شتى أنواع العلم، وبما تم فيها من مناقشات وحوارات بين الكتبيين أنفسهم - وكان معظمهم من العلماء - أو بين العلماء المترددين على سوق الكتبيين بالقاهرة.

***

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

الأدفوي (أبو الفضل كمال الدين جعفر ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م):

١- الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد. تحقيق: سعد محمد حسن. الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م.

البقاعي (إبراهيم بن حسن ت ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م):

٢- عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران. تحقيق: د. حسن حبشي. مطبعة دار الكتب ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٣- عنوان العنوان أو المعجم الصغير. تحقيق: د. حسن حبشي. مطبعة دار الكتب ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٤- إظهار العصر لأسرار أهل العصر. تحقيق: د. محمد سالم العوفي. هجر سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

بيبرس الدوادار (بيبرس المنصوري ت ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م):

٥- التحفة الملوكية في الدولة التركية. تحقيق: د. عبد الحميد حمدان، الدار المصرية اللبنانية.

ابن تغري بردي (جمال الدين يوسف ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م):

٦- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، جـ١ و ٢ و ٨ و ٩ و ١٠ بتحقيق د. محمد محمد أمين. جـ٣ - ٦ بتحقيق د. نبيل عبد العزيز. مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

التميمي (تقي الدين عبد القادر المصري ت ١٠٠٥هـ / ١٥٩٦م):

٧- الطبقات السنية في تراجم الحنفية. جـ١، تحقيق: د. عبد الفتاح الحلو. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

ابن الجزري (محمد بن إبراهيم ت ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م):
٨- تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه. تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري. المكتبة العصرية. بيروت. لبنان.
ابن حبيب (الحسن بن عمر ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م):
٩- تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه. تحقيق: د. محمد محمد أمين. مطبعة دار الكتب ١٩٧٦م.
ابن حجر (أحمد بن علي ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م):
١٠- أنباء الغمر بأنباء العمر. تحقيق: د. حسن حبشي. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
١١- رفع الإصر عن قضاة مصر. تحقيق: د. علي محمد عمر. مكتبة الخانجي بالقاهرة.
ابن الحمصي (أحمد بن محمد ت ٩٣٤هـ/ ١٥٢٧م):
١٢- حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران. تحقيق: د. عمر عبدالسلام تدمري. المكتبة العصرية. بيروت. لبنان.
الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م):
١٣- سير أعلام النبلاء جـ٢٣ مؤسسة الرسالة. بيروت - لبنان.
زين الدين الحلبي: (عمر بن أحمد ت ٩٣٦هـ / ١٥٢٩م):
١٤- القبس الحاوي لغرر ضوء السخاوي. تحقيق: حسن إسماعيل وخلدون حسن. دار صادر. بيروت.
السخاوي (محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ/ ١٣٩٦م):
١٥- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. دار مكتبة الحياة. بيروت.
١٦- وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام. تحقيق: د. بشار عواد وعصام الحرستاني وأحمد الخطيمي. مؤسسة الرسالة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

١٧- التبر المسبوك في ذيل السلوك جـ١ - ٢ . تحقيق: نجوى مصطفى ود. لبيبة إبراهيم . مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م . ونسخة أخرى كاملة طبعة المكتبة الأزهرية .

السلفي (الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد ت ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م):

١٨- معجم السفر. تحقيق: عبد الله البارودي. دار الفكر. بيروت ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م .

السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م):

١٩- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم . المكتبة العصرية . صيدا . بيروت .

ابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م):

٢٠- عيون التواريخ ، جـ٢٠ وجـ٢١ تحقيق نبيلة عبد المنعم، ود. فيصل السامر. منشورات وزارة الثقافة والإعلام بالعراق، سلسلة كتب التراث (١٢٢).

ابن الشحنة (محمد بن محمد ت ٨١٥هـ / ١٤١٢م):

٢١- روض المناظر في علم الأوائل والأواخر. تحقيق: سيد مهني . دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م .

الصفدي (صلاح الدين خليل ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م):

٢٢- الوافي بالوفيات . تحقيق عدة محققين لكل جزءٍ محقق بذاته.

٢٣- أعيان العصر وأعوان النصر. تحقيق: د. علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر - دمشق ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.

الصيرفي (علي بن داود ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م):

٢٤- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان. تحقيق: د. حسن حبشي. دار الكتب المصرية ١٩٧٠م - ١٩٧٤م ، وجـ٤ سنة ١٩٩٤م .

٢٥- إنباء الهصر بأنباء العصر. تحقيق د. حسن حبشي. الهيئة المصرية للكتاب ٢٠٠٢م .

ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحي ت ١٠٨٩هـ):

٢٦- شذرات الذهب في أخبار من ذهب. دار الفكر. بيروت .

العمري (شهاب الدين بن فضل الله ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م):

٢٧- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. تحقيق: دورتيا كرافلولسكي. بيروت .

العيني (بدر الدين محمود ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م):

٢٨- عقد الجمان في تاريخ الزمان. تحقيق د. محمد محمد أمين . الهيئة المصرية العامة للكتاب، وجزء آخر بتحقيق د. عبد الرازق القرموط . مطبعة علاء ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م .

الفاسي (محمد بن أحمد ت ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م):

٢٩- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين. جـ١ تحقيق: محمد حامد الفقي، وجـ٢ - ٦ تحقيق: فؤاد سيد وجـ٧ - ٨ تحقيق: د. محمود الطناحي. مطبعة السنة المحمدية.

ابن الفرات (محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٤م):

٣٠- تاريخ ابن الفرات جـ٨ تحقيق: د. قسطنطين زريق ود. نجلاء عز الدين.

ابن فهد (عمر بن فهد النجم، ت ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م):

٣١- إتحاف الورى بأخبار أم القرى جـ٤ تحقيق: د. عبد الكريم باز. جامعة أم القرى، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة .

٣٢- الدر الكمين بذيل العقد الثمين. تحقيق عبد الملك دهيش. مكتبة الأسدي مكة المكرمة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م .

٣٣- معجم الشيوخ . تحقيق: محمد الزاهي. منشورات دار اليمامة. السعودية .

ابن قاضي شهبة (أبو بكر أحمد ت ٨٥١هـ/ ١٤٤٨م):

٣٤- تاريخ ابن قاضي شهبة. تحقيق عدنان درويش. دمشق ١٩٧٧م.

٣٥- طبقات الشافعية . تحقيق: د. علي محمد عمر. مكتبة الثقافة الدينية. مصر.

القلقشندي (أحمد بن علي ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م):

٣٦- صبح الأعشى في صناعة الإنشا. الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٥م .

المقريزي (أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م):

٣٧- السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق د. محمد زيادة ود. سعيد عاشور. دار الكتب المصرية .

٣٨- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. طبعة بولاق .

٣٩- المقفى الكبير . تحقيق: محمد اليعلاوي. دار الغرب . بيروت .

٤٠- الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك. تحقيق د. جمال الدين الشيال . مكتبة الخانجي ١٩٥٥م .

ابن النجم (عبد العزيز بن النجم بن فهد ت ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م):

٤١- بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى. تحقيق: صلاح الدين خليل وآخرون. دار القاهرة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م . مصر .

النويري (أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م):

٤٢- نهاية الأرب في فنون الأدب. جـ٣١ تحقيق د. الباز العريني طبعة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م وجـ٣٢ تحقيق: فهيم محمد شلتوت . مطبعة دار الكتب ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م .

ثانيًا : المراجع العربية :

٤٣- جورج عطية : الكتاب في العالم الإسلامي . ترجمة د . عبد الستار الحلوجي عالم المعرفة العدد ٢٩٧ سنة ٢٠٠٣م .

٤٤- د . السكندر ستيبتشفيتن : تاريخ الكتاب . ترجمة د . محمد الأرناؤوط . سلسلة عالم المعرفة رقم ١٦٩ .

٤٥- د . شعبان عبد العزيز خليفة : الكتب والمكتبات في العصور الوسطى ، الدار المصرية اللبنانية .

ثالثًا : المراجع الأجنبية :

46- Dopp. P. H. L'Égypte Au Commencement Au Quinzième siècle.le Caire 1950 .

47- Lane Poole: A History of Egypt in the Middle Ages. London 1901 .

***